بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الملك فيصل ، التعليم عن بعد

محتوى تجميع مقرر الأخلاق الإسلامية و أداب المهنة

للدكتور : عبدالله الديرشوي

للعام الدراسي / ١٤٣٦هـ

إعداد وتجميع / السعود

المحاضرة الأولى : تعريف عام بالخُلُق ومكانته في الإسلام

أولاً: تعريف الخُلُق:

الخُلُق لغة: بضم الخاء واللام، الطبع والسجية والمروءة. وجمعه أخلاقٌ. وسميت خُلُقاً لأنها تصير كالخِلْقة في صاحبها فلا تكاد تنفك عنه.

وهو يمثل صورة الإنسان الباطنة، والجانب المعنوي في شخصيته. أي؛ نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصَّة بها. وأما الخَلْق –بفتح الخاء- فيمثل صورته الظاهرة، والجانب المادي في شخصيته، وأوصافها ومعانيها.

يقول الراغب رحمه الله: "الخَلْق والخُلُق في الأصل واحدٌ ... لكن خُصّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة".

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: "الخَلْق والخُلُق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلانٌ حسنُ الخُلُق والخَلْق. أي: حسن الباطن والظاهر. فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركبٌ من جسدٍ مدرك بالبصر، ومن روحٍ ونفسٍ مدركٍ بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئةٌ وصورةٌ: إما قبيحةٌ، وإما جميلةٌ. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر.

والخُلُق اصطلاحاً: "حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خيرٍ أو شرٍ بسهولةٍ ويسرٍ من غير حاجةٍ إلى فِكْرٍ و رَوِيَّةٍ".

ومعنى: (حالٌ): أي هيئةٌ أو صفةٌ للنفس الإنسانية. وبهذا الاعتبار يقال: فلانٌ خُلُقه حميدٌ.

و(راسخةٌ): أي؛ ثابتة بعمق. وهو ما يعني أن الأفعال تتكرر من صاحبها على نسقٍ واحدٍ حتى تصبح عادةً مستقرةً لديه. ومن ثَمَّ كان مَنْ يُنفق المال مرةً أو مرتين أو ثلاثٍ على المحتاجين لا يوصف بخُلُق السخاء والجود، بل لابد من تكرره منه مراراً بحيث يُصبح عادةً له.

و(من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ ورَوِيَّةٍ): أي من غير تَكَلُّفٍ، أو مجاهدةِ نفس، أو قيامٍ بمحاكمات عقلية، بل تصدر بسهولة ويسر، وبطريقةٍ تلقائية.

وعلى هذا المعنى يُحمل قول الله سبحانه في مدح نبيه محمد ﷺ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: ٤).

ولكن قد يُطلَق الخُلُق مجازاً على نَفْسِ المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني فنقول: العِفَّة خُلُق، والصِّدق خُلُق، والحياء خُلُق، بقطع النظر عن الفاعل، وعلى هذا المعنى يُحمل قول الرسول ﷺ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق). أي لأتمم صالح القواعد المنظمة لسلوك الإنسان.

وقد يُطلق أيضاً -من باب المجاز- على الفعل الصادر من خُلُق الإنسان، كالشجاعة الصدرة منه أو السخاء الصادر منه. يقول الراغب: "جُعل الخُلُق مرةً للهيئة -الصفة- الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر، وجُعل مرة اسماً للفعل الصادر عنه باسمه، وعلى ذلك أسماء أنواعها نحو العفة والعدالة والشجاعة، فإن ذلك يقال: للهيئة والفعل جميعاً".

ثانياً- موضوع علم الأخلاق:

ذكرنا أن الخُلُق يستقر في النفس الإنسانية، إلا أنه ليس الوحيد الذي يستقر فيها، فهناك إلى جانبه أيضاً الغرائز والدوافع كالحاجة إلى الطعام والنكاح، وكحب الولد والمال، وقد يلتبسان ببعضهما فلا يميز كثيرٌ من الناس بين ما هو من قبيل الخُلُق وما هو من قبيل الغرائز والدوافع، ومن ثَمَّ حَسُنَ التمييز بينهما، ولعل أهمَّ ما يُميزهما عن بعضهما، أن الغرائز والدوافع لا توصف بالخير أو الشر، ولا تستوجب لصاحبها مدحاً ولا ذماً، كما لا يترتب على إشباعها ثوابٌ أو عقابٌ، بخلاف الخُلُق فإنه يتعلق بالأعمال التي توصف بالخير أو الشر، وبالحسن أو القبح، ويستوجب لصاحبه مدحاً أو ذماً، ويُعرضه للثواب أو العقاب.

فإنْ حَصل ومُدِحَ الإنسانُ أو ذُمَّ على تعاطيه مع بعض تلك الغرائز أو الدوافع، لم يكن المقصودُ نفسَ الفعل، وإنما طريقة تلبية تلك الحاجة، أو إشباع تلك الرغبة. فمَنْ يأكل لدفع الجوع عن نفسه لا يُمدح ولا يُذم على نفس فعل الأكل (لأنه يُشبع حاجة فطرية)، وإنما يُمدح أو يُذمُّ على طريقته في الأكل. فإن أكل مما يليه، وبهدوءٍ، وبدأ باسم الله، وانتهى بحمد الله، حُمِد على فعله هذا. وإن أكل بشراهةٍ ... ذُمَّ على فعله. وهكذا يُقال في بقية الغرائز.

ثالثاً- أقسام الخُلُق:

يمكن تقسيم الخُلُق باعتبار منزلته في الشرع، إلى: خُلُق محمود؛ ينتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ جميلةٌ عقلاً وشرعاً. وخُلُق مذموم؛ ينتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ قبيحةٌ عقلاً شرعاً.

كما يمكن تقسيم الخُلُق باعتبار دور الإنسان فيه إلى:

أخلاق فطرية، لا دور للإنسان في اكتسابها، بل هي هبةٌ من الله تعالى، جَبَلَه عليها. كحال الأنبياء عليهم السلام الذين اصطفاهم الله، وجعلهم القدوة الصالحة خُلُقاً وسلوكاً وأدباً.

وهناك مِن غير الأنبياء أيضاً مَنْ يمُنُّ اللهُ عليه ببعض الصفات الخُلقية الحميدة، كما في حديث أشج عبد القيس حيث قال له النبي ﷺ : (إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ). قال يا رَسُولَ اللَّهِ: أنا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا، أَمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قال: (بَلْ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا) قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي جَبَلَنِي على خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله وَرَسُولُهُ". وعبد القيس قبيلة، والأشج رئيسها، واسمه المنذر بن عائذ. والحِلم: العقل. والأناة: التثبتُ وتركُ العجلة.

أخلاق مكتسبة، يكتسبها الإنسان بالتدريب والممارسة، يقول ﷺ: (إنما العلم بالتعلم)، ويقول: (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله). البداية من العبد، ثم يأتيه التوفيق من الله.

رابعاً: أمهات الأخلاق:

حوى القرآن الكريم والسنة المطهرة على أمهات الأخلاق والفضائل جميعها في نصوصٍ جامعةٍ موجزة، نشير فيما يأتي إلى نماذج منها.

من هذه الآيات الجامعة للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل: ٩٠). قال ابن مسعود ﷺ: "ما في القرآن أجمعُ لخيرٍ ولا لشرٍ من آية في سورة النحل {إن الله يأمر بالعدل}، وقال الحسن البصري رحمه الله: "لم تترك هذه الآية خيراً إلا أمرت به، ولا شراً إلا نهت عنه".

ومنها قوله تعالى: {وتَعَاوَنُوا على البِرِّ والتَّقْوى، وَلا تَعَاوَنُوا على الإِثْمِ والعُدوَانِ} (المائدة: ٢). والبر اسمٌ جامعٌ لكل طاعةٍ وخيرٍ، والإثم اسمٌ جامع لكل معصية وشر. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "يتعاونون

على الصدق والعدل والاحسان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونصر المظلوم، وكل ما يحبه الله ورسوله، ولا يتعاونون لا على ظلمٍ، ولا عصبيةٍ جاهليةٍ، ولا اتباع الهوى، بدون هدىً من الله".

ومن الأحاديث النبوية الجامعة لأمهات الأخلاق قوله ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فإن الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديث، ولا تَحَسَّسُوا ولا تَجَسَّسُوا ولا تَنَافَسُوا ولا تَحَاسَدُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً). وقوله ﷺ: (ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مَالٍ، وما زَادَ الله عَبْداً بِعَفْوٍ إلا عِزًّا، وما تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إلا رَفَعَهُ الله).

وقد أرجع كثيرٌ من العلماء أمهاتِ الأخلاقِ وأصولها إلى أربعةٍ هي:

الحكمةُ والشَّجاعةُ والعِفَّةُ والعدلُ، وقالوا: إن ما سواها يندرج فيها، وهي بمثابة فروعٍ لها.

ويعنون بالحِكمة: حالاً للنَّفسِ بها يُدْرَكُ الصَّوابُ من الخطأ.

وبالعدل: حَالاً للنَّفس وقوةً بها تسوس الغضب والشهوة، وتحملهما على مقتضى الحكمة، وتضبطهما في الاسترسال والانقباضِ على حسب مقتضاها.

وبالشَّجاعة: كونَ قوَّةِ الغضَبِ مُنقادَةً للعقل في إقدامها وإحجامها.

وبالعفَّة: تأدّبَ قوَّة الشَّهوة بتأديب العقل والشَّرع.

فيندرج مثلاً في خُلُق الحكمة "حسن التدبير، وجودة الذهن، وثقابة الرأي، وإصابة الظن، والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس، وينتج عن إفراطها –زيادتها عن الحد الوسط- المكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها البله والحمق".

ويندرج في خُلُق الشجاعة "الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد، وينتج عن إفراطها –زيادتها- التهور والصلف والتكبر والعجب، وعن تفريطها -التقصير فيها- المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس".

ويندرج في خُلُق العِفة "السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع، وينتج عن ميلها إلى الإفراط أو التفريط الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والعبث والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء".

خامساً: مكانة الأخلاق في الإسلام:

تمثل الأخلاق جوهر رسالة الإسلام، ونصوص الشرع في الأمر بالفضائل والنهي عن الرذائل تصل بها إلى أعلى درجات الإلزام، وترتب عليها أعظم الجزاء في الدنيا والآخرة. يقول الرسول ﷺ: (الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة. والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار)، ويقول: (دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي دعتها تأكل من خشاش الأرض). وبلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أن الله سبحانه حين أثنى على نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم، اختار الثناء عليه من جهة أخلاقه.

بل إن الله سبحانه أخبر بأن الغاية من بعثة نبيه ﷺ أخلاقية، وذلك بتزكية نفوس المؤمنين وتطهيرها، فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (الجمعة: ٢)، وكذلك أخبر الرسول ﷺ بأن الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)، فهو ﷺ المتممُ والمكمل لرسالات من سبقوه من الأنبياء عليهم السلام، وما بُعثوا به من القيم والفضائل.

مكانة الأخلاق بين علوم الشرع:

تمثل الأخلاق إحدى الشعب الأربع لعلوم الشرع (عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق). وربما قسمها بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات تحت اسم الشريعة، فقالوا: (عقيدة، وشريعة، وأخلاق).

وهذا التقسيم إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في كل شعبة، وإلا فإنها لا تنفك عن بعضها، بل هي متداخلة متعاضدة كالبنيان يشد بعضها بعضاً.

ففي مجال العقائد نجد أن الإسلام يربط بين الإيمان والأخلاق ربطاً محكماً، فيجعل حُسْن الخُلق علامة كمال الإيمان، فيقول ﷺ: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً)، ويعتبر التوحيد –الذي هو أساس الإيمان- من باب "العدل" المصنف في الفضائل الخُلُقية، كما يعتبر الشرك من باب "الظلم"، المصنف في الرذائل الخُلُقية، فيقول سبحانه على لسان لقمان: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (لقمان: ١٣)، لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها!

بل إن القرآن الكريم اعتبر الكفر بكل أنواعه ظلماً، فقال تعالى: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة: ٢٥٤).

وفي مجال العبادات، نجد أن أمهاتها ذات أهداف أخلاقية جليةٍ، نصَّ عليها القرآن بوضوحٍ.

قال تعالى في شأن الصلاة وهي الأهم من بين العبادات: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ} (العنكبوت: ٤٥). أي أن الصلاة تعين على الخُلُق القويم، وتسهم في تربية الضمير على الابتعاد عن الرذائل، كما أنها تعين المسلم على التحلي بالصبر في مواجهة متاعب الحياة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(البقرة: ١٥٣).

وفي شأن الزكاة قال تعالى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} (التوبة: ١٠٣)، فجعل الغاية منها تطهير النفس وتزكيتها، وهما الأساس في الأخلاق.

وفي شأن الصوم قال تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة: ١٨٣)، فجعل الغاية منه إدخال صاحبه في سلك المتقين.

وفي شأن الحج قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} (البقرة: ١٩٧). فجعل الغاية منه تدريب المسلم على ضبط جوارحه.

وفي مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها، سواءٌ في ميدان الإنتاج، أو المبادلة، أو التوزيع، أو الاستهلاك.

ففي مجال الإنتاج أوجب الإسلام أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة، وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} (البقرة: ٢١٩)، وقال رسول اللَّهِ ﷺ (لَعَنَ الله الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إليه). فبين أنه يحرم إنتاجه على الرغم من منافعه المادية وذلك لضرره، ومثله الميسر وكُلُّ مُحَرَّم.

وفي مجال التبادل يحرم الإسلام الاحتكار والغش وكتمان العيب، وإنفاق السلعة بالحلْف، واستغلال حاجة الآخرين، ففي الحديث: (لا يحتكر إلا خاطئ) أي آثم. وفيه أيضاً: (مَنْ غشنا، فليس مِنَّا)، وفيه: (الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ).

وفي مجال الملكية، يمنع الإسلام من تملك ثروةٍ بطريق غير مشروع، أو أخذ ما ليس بحق.

وفى مجال التوزيع يأمر الإسلام بالعدل بين الأولاد في العطية. يقول ﷺ: (اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بين أَوْلَادِكُمْ)، كما يضع الإسلام نظاماً دقيقاً في توزيع الميراث، والصدقات المفروضة، والغنائم.

وفي مجال الاستهلاك والإنفاق يأمر بالاعتدال والتوسط، والابتعاد عن الترف، والتبذير والإسراف والتقتير. قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} (الإسراء: ٢٩)، وقال أيضاً: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأعراف: ٣١).

وفي مجال السياسة، نجد أن الإسلام قد ربط السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب الدنيئة للوصول إلى الغايات، مهما كانت تلك الغايات نبيلة. ورفض مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة". وبنى سياسته على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء بالعهود. قال تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ على سَوَاءٍ إِنَّ اللّهَ لا يُحبُّ الخائنينَ} (الأنفال: ٥٨)، وقال جل شأنه: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ}(الأنعام: ١٥٢).

وفي مجال الحرب لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق، بل بقيت كما في السِّلْم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: ١٩٠)، وجعل الإسلام الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله، والانتصار للحق والخير.

اختر الإجابة الصحيحة لكلِ مما يأتي :

(١) الذي خُصّ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر هو:

أ- الخلق (بفتح الخاء) .　　ج- الغرائز .

ب- الخلق (بضم الخاء واللام) .　　د- جميعها صحيحة .

(٢) قد يُطلَق الخُلُق على نَفْسِ المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني وبهذا المعنى ورد :

أ- قوله تعالى: {وإنك لعلى خلق عظيم}　　ج- كلاهما خطأ .

ب- قول النبي (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)　　د- كلاهما صحيح .

المحاضرة الثانية : أسس النظام الأخلاقي في الإسلام

أسس النظام الأخلاقي في الإسلام

تقوم الأخلاق الإسلامية على دعائم وأسسٍ ثلاثةٍ هي:

الأساس الاعتقادي، والأساس الواقعي، والأساس العلمي.

أولاً - الأساس الاعتقادي:

ويُقصد به أن نظام الأخلاق في الإسلام مشيد على أسس من عقيدته المتمثلة في أركان الإيمان، وخصوصاً الثلاثة الآتية:

الأول: الإيمان بوجود الله تعالى، وبأنه وحده الخالق للكون وللبَشَر، وخالق الموت والحياة، وبأنه وحده المتصرف فيهم {أَلَا لهُ الخَلْقُ والأَمْرُ} (الأعراف: ٥٤)، وبأنه تعالى قد أحاط بكل شيءٍ علماً، وبأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ} (ق: ١٦).

الثاني: الإيمان برسالات الأنبياء والرسل، وبأن الله لم يترك الناس منذ أن خلقهم سُدى، بل هداهم لمعرفته، وعرَّفهم بطريق الخير والشر، وأمرهم باتباع شرائعه، وحذرهم من مخالفة أوامره، وأخبرهم أن من أطاعه فله الرضا والجنة، ومن عصاه فله السخط والنار. قال تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أولئك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة: ٣٨-٣٩). وقال سبحانه: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس: ٨)، ثم الإيمان بأن الشريعة التي أُرسل بها محمد ﷺ هي خاتمة الشرائع، {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران: ٨٥)، وقال تعالى: {قُلْ يا أَيُّهَا الناس إني رسول اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً} (الأعراف: ١٥٨). والله سبحانه وهب الإنسان العقل وأنشأه على الفطرة السليمة، وأوجد فيه القوة والقدرة على إدراك الحق والباطل، ومعرفة الخير والشر، ومن ثَمَّ جاء تكليفه باتباع الحق والخير، واجتناب الشر والباطل، وإدراك ما عليه من واجبات أو محرمات.

الثالث: الإيمان بالحياة الأخرى، وأنها إما نعيم، وإما جحيم. فالنعيم لمن اتبع الحق، وفعل الخير. والجحيم لمن اتبع الباطل، وارتكب ما حرم الله. وكلاهما لا يكون إلا بعد حساب دقيق بين يدي الخالق عز وجل يوم القيامة. قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس: ١٢). وقال جل جلاله: {وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} (الأنبياء: ٤٧).

أهمية الأساس الاعتقادي: هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم -المنبثق من الإيمان بالله وبرسالاته واليوم الآخر والحساب- في غاية الأهمية، بل هو عماد النظام الأخلاقي الإسلامي. ومن غير هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها، وتتحول إلى مواعظ أو نصائح مجردةٍ يمكن أن تصدر عن أي إنسانٍ.

إن ما يدفع المسلم إلى الالتزام بأخلاق دينه وتطبيقها في السر والعلن، إيمانه بأنها من الله، وأنه سبحانه رقيب عليه، وسيحاسبه عليها، وأن اتصافه بالخُلُق الحميد يعني رضا الله والجنة، واتصافه بخلاف ذلك يعني السخط والنار.

ثم بقدر تمكن هذا الأساس من قلب المؤمن، يكون الامتثال والتحلي بالفضائل والقيم.

يقول الدكتور ألكسيس كاريل: "الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية".

وأمرٌ آخر يؤكد أهمية هذا الأساس الاعتقادي وهو أن في طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان؛ فمن انعدم لديه الإيمان عانى من الفراغ في هذا الجانب، وأحَسَّ بالقلق والاضطراب، كما هو حال الوجوديين وأمثالهم من الملاحدة ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، حيث نجد القلق والحيرة قد استبدت بأعماق نفوسهم، ولربما أدى ذلك بهم إلى الانتحار، بخلاف المؤمن الذي يكون في طمأنينة ورضا مهما واجهته المصائب والتحديات، وبقدر زيادة إيمانه وتمكنه من قلبه، يكون شعوره بالرضا أعظم، وتسليمه بقضاء الله أتم.

إن أولئك الوجوديين وأمثالهم -من الملاحدة- لا يعانون فقراً أو حرماناً في الغالب! وإنما يعانون من فقدان الطمأنينة التي يجلبها الإيمان القويم، وهذا أمرٌ مشاهدٌ ومحسوسٌ، يُقر به جمع كبيرٌ من علماء ومفكري الغرب.

ثانياً - الأساس الواقعي:

أقام الإسلام نظامه الأخلاقي على أساس واقعي، وذلك من خلال مراعاة طبيعة الإنسان من جهة، ومراعاة واقع الطبيعة والكون من حوله من جهة أخرى.

فأما مراعاته لطبيعة الإنسان فقد تجلت في نظرته له على أنه مكونٌ من روحٍ وجسدٍ وعقلٍ وشهوةٍ ومشاعرَ وعواطفَ، وعلى أن هناك صراعاً بين طبيعته وتكوينه المادي الذي يميل إلى الأرض، فينساق للأهواء والشهوات من جهة، وروحه العلوية التي هي من نفخ الإله، وتدعوه إلى السمو والرقي والمثالية من جهة أخرى.

وقد وضع الإسلام نظاماً دقيقاً للتنسيق بين هاتين الطبيعتين فيه ، ووجهه إلى السلوك الذي يليق به بصفته المخلوق الذي كرمه الله، وبصفته الكائن الأشرف على ظهر الأرض، ومن أتباع خاتم الأنبياء والرسل عليهم وعلى نبينا أزكى الصلاة والتسليم.

وأما مراعاة الإسلام للطبيعة فقد تجلت في نظرته الوسطية والواقعية إلى ما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بها. وقد جاءت نظرته وسطاً بين نظرتين متطرفتين هما:

دعوات روحية تدعو الإنسان إلى مجابهة الطبيعة والاستعلاء عليها، مهما كانت الضغوطات التي تواجهه في الحياة. وقد تجلت هذه الدعوات في فلسفات وأديان انتشرت في بلدان المشرق (كالهند والصين وفارس). وكانت تعتقد بأن الإنسان بقدر ما يستعلي على الطبيعة، ويتنكر لمتطلباتها، سيحقق لنفسه السعادة المنشودة، والسمو الروحي الذي يطمح إليه.

دعوات مادية (للطبيعيين) تدعو للاستسلام للطبيعة، والانسياق وراءها، والاستجابة لمتطلباتها. وقد تجلت هذه الدعوات في فلسفات انتشرت في بلدان الغرب (الإغريق والرومان قديماً، وأوربا حديثاً وارثة فلسفتهم وحضارتهم)، وتقوم معظمها على إنكار الحياة الآخرة وعلى أنه لا بعث بعد الموت، وعلى أن هذه الحياة هي فرصة الإنسان، ولا ينبغي له أن يفوت على نفسه شيئاً من مُتَعِها!.

فجاء موقف الإسلام وسطاً بين هاتين النظرتين، وتجلى ذلك في:

١- دعوته للإنسان أن يضبط ميوله ورغباته ويوجهها وفقاً للمُثُل والقِيَم والأحكام التي جاء بها الإسلام. قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ....} (النازعات:٣٧-٤١)، وأن يكون سيداً على الطبيعة، فيسخر مواردها في عمران الأرض، ونفع العباد. قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} {هود:٦١}. أي طلب منكم عمارتها.

٢- دعوته إلى التأقلم والانسجام مع الطبيعة ومع الواقع الذي يعيشه، فلا يتصادم معه. قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} (الأعراف: ٣٢)، ويسمى هذا استفهاماً إنكارياً. وفي معنى الآية أيضاً قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (البقرة: ١٧٢).

إذاً هذا هو موقف الإسلام من الطبيعة، موقفٌ وسطٌ لا ينساق مع الشهوات والأهواء من غير ضوابط ولا قيود، وكذلك لا يتنكر لمتطلبات الجسد وغرائزه ورغباته، بل يلبيها ضمن حدود النفع الذي يعود عليه وعلى المجتمع من حوله.

ثالثاً - الأساس العلمي:

أقام الإسلام نظامه الأخلاقي على أسس علمية تتمثل في القوانين الأساسية للحياة البشرية، وهي: (قانون المحافظة على الحياة، وقانون تكاثر النوع الإنساني، وقانون الارتقاء العقلي والروحي). وفيما يلي بيانٌ لكل واحدٍ من هذه القوانين.

القانون الأول: قانون المحافظة على الحياة: ويُقصد به أن الإسلام اعتبر كلَّ سلوكٍ من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها، سلوكاً أخلاقياً مشروعاً ومطلوباً. كما أنه اعتبر كل سلوكٍ يضاد الحياة أو يعوقها بصورة من الصور، سلوكاً غير أخلاقيٍ ومرفوضاً ومحرماً.

ومن ثَمَّ فقد أمر أتباعه بتعاطي كل أسباب الحياة، من أكل وشرب ونوم وراحة ومركبٍ وسكنى.

كما أمرهم بالابتعاد عن كل ما يمكن أن يُلحق بهم الأذى والضرر، فحرم القتل، وتهديد الآخرين وإخافتهم، والتحاسد والتباغض والتدابر. قال تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة: ١٩٥)، وَقَوْلِهِ: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} (النساء: ٢٩)، وقال ﷺ: (المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ ... بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ).

القانون الثاني: تكاثر النوع الإنساني: ويُقصد به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى إبقاء النوع الإنساني وتكثيره سلوكاً أخلاقياً راقياً ومطلوباً، ومن ثَمَّ فقد شرع الزواج، وحث عليه، ففي حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)، كما حث ﷺ على حسن اختيار الزوجة، فقال: (تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم)، وحث الآباء على تزويج بناتهم من أناس صالحين، ذوي دين وخلق فقال ﷺ: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاَّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد).

كما أن الإسلام - من جهة أخرى- منع كل سلوكٍ من شأنه أن يحدَّ أو يعوق استمرار التناسل، كالتبتل والرهبانية والخِصاء، لتصادمه مع بقاء النوع الإنساني وتكاثره. ففي حديث ابن مسعود ﷺ، قال: "كنا نغزو مع النبي ﷺ ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك".

القانون الثالث: الارتقاء العقلي والروحي: ويُقصد به أن الإسلام اعتبر كل سلوكٍ من شأنه أن يؤدي إلى السعادة والإقبال على الحياة بمحبة وانشراح، أو كل سلوكٍ من شأنه أن ينمي العقل، ويحافظ عليه، سلوكاً أخلاقياً راقياً.

كما أنه اعتبر كل سلوكٍ يُضاد الحياة السعيدة بأن يجعل الإنسان يعيش في عزلة من الناس أو متشائماً أو قلقاً، أو يُضاد العقل بأن يجعله مستسلماً للجهل والخرافات، سلوكاً غير أخلاقي.

ومن ثَمَّ حَثَّ الإسلامُ على العلم وصِلة الرَّحِم، ومحبة الآخرين، والرضا بقضاء الله وقدره. فقال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ، وقال أيضاً: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراءٌ شَكَر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءٌ صَبَر فكان خيراً له). فالمسلم يتلقى المصائب بنفسٍ راضية بقضاء الله، وتسليمٍ لأمره، ويعتقد أن قضاء الله خير، وأن الحكمة فيه وإنْ خفي عليه.

كما حرم الإسلام تعاطي المسكرات والمخدرات، وما من شأنه أن يَضُرَّ ببدن الإنسان أو عقله، فقال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} (المائدة: ٩٠-٩١).

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) تقوم الدعوات المادية على :

أ- الاستسلام للطبيعة . **ج- السمو الروحي .**

ب- الإيمان بالله . **د- جميعها صحيح .**

(٢) يعني قانون الارتقاء العقلي والروحي أن الإسلام اعتبر من السلوك الأخلاقي الراقي كل سلوكٍ من شأنه أن:

أ- يؤدي إلى الإقبال على الحياة بمحبة وانشراح **ج- ينمي العقل .**

ب- يحافظ على العقل **د- جميعها صحيح .**

المحاضرة الثالثة : خصائص الأخلاق الإسلامية

خصائص الأخلاق الإسلامية

يتميز النظام الأخلاقي في الإسلام عن غيره من الأنظمة الأخلاقية الوضعية أو السماوية المحرَّفة بجملة من الخصائص، أهمها:

أولاً- أنها أخلاقٌ ربانية:

فهي ليست أخلاقاً نابعةً من تأملاتٍ فلسفيةٍ، أو اعتباراتٍ نفعيةٍ، أو تجارب تربوية، وإنما هي في أصولها وفروعها مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. فما من خُلُقٍ حميد إلا ونجد الحثَّ عليه في الكتاب والسنة، وما من خلق ذميمٍ إلا ونجد التحذير منه.

من ذلك إضافة إلى ما سبق في مواضع متعددة:

قوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ...} (البقرة: ١٧٦- ١٧٧).

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} (الحجرات: ١١- ١٢)

وقول النبي ﷺ: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»).

وقوله ﷺ: (أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّلاةِ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: إِصْلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ). أي تحلق الدين كما في بعض الروايات.

والآيات والأحاديث في هذا الشأن أكثر من أن تحصى.

ولا شك أن هذه ميزة متفردة، وفي غاية الأهمية، إذ لا يمكن أن يكون لخُلُق مصدره الإنسان تأثيراً وصدىً على سلوك الناس كالذي يكون مصدره رب العالمين، أو رسوله ﷺ المؤيد بوحيه، وقد سبق أن نقلنا عن ألكسيس كارل قوله في الفارق بين الاثنين: "أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية"

ثانياً- أخلاقٌ مرتبطةٌ بالإيمان:

الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالإيمان ارتباطاً قوياً وعميقاً؛ بحيث يستحيل الفصل بينهما. والنصوص التي تربط بين الإيمان وحسن الخُلُق كثيرة جداً؛ حتى إنها لتجعل الإيمان، هو نفسه حُسْن الخُلُق، وذلك لأن حُسْن الخُلُق يقتضي أول ما يقتضي شُكر المنْعِم (الإله)، والاعتراف بفضله، والثناء عليه، والوقوف عند حدوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وأما التمرد على أوامره ونواهيه، فهو أعظم العقوق، وأفحش الخُلُق.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجملتها ثمرة حُسْن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حُسْن الخُلق. قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ... وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ...} (المؤمنون: ١- ٥)،

وقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً... وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ...} (الفرقان: ٦٣-٦٧)، من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حُسْن الخُلُق، وفقد جميعها علامة سوء الخُلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال ﷺ: (من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمُتْ). وقال: (لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).

ويقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "الإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، ومن ثمَّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خيرٍ، أو يُنفرهم من شرٍ، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه:

{يا أيها الذين آمنوا} ثم يذكر بعدُ ما يُكلفهم به، مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} (التوبة:١١٩)، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} (الأحزاب: ٧٠) ...وقد وضح صاحب الرسالة ﷺ أن الإيمانَ القوي، يَلِدُ الخُلُقَ القويَّ حَتْماً، وأن انهيار الأخلاق مَرَدُّهُ إلى ضَعف الإيمان، أو فُقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته... فالرجلُ الصفيقُ الوجه، المعوجُ السلوك، الذي يقترف الرذائل غير آبهٍ لأحدٍ، يقول رسول الإسلام في وصف حاله: (الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر) ! والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً، فيقول فيه الرسول ﷺ : (والله لَا يُؤْمِنُ والله لَا يُؤْمِنُ والله لَا يُؤْمِنُ) قِيلَ: وَمَنْ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: (الذي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بوائقه)، وتجد الرسول ﷺ عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثرثرة يقول: (مَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمُتْ). وهكذا يمضى في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتى ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكماله".

ثالثاً- أخلاقٌ شاملة:

تتنوع الأخلاق الإسلامية وتتسع لتشمل جميع المجالات، ومن هذه المجالات:

خُلُق مع الله ومع نبيه ﷺ، وذلك بالسمع والطاعة، والتسليم والرضا بما جاء به النبي ﷺ. قال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} (النور:٥١).

وكذلك بتعظيم شعائر الله من خلال تعظيم كتابه، وتعظيم أنبيائه، وتعظيم بيوته وحرماته. قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ... ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} (الحج: ٣٠-٣٢).

وكذلك بالنصح لله ولكتابه ولرسوله. عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: (لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ). قال العلماء في بيان معناه: أي أن عماد أمر الدين النصيحة، وتكون لله بتقديم حقه على حق الناس، ولكتابه بتعلُّمه وتعليمه، وتفهم معانيه، والعمل بما فيه، والدفاع عنه، ولرسوله ﷺ بتعظيمه ونصرة دينه، وإحياء سنته بتعلُّمها وتعليمها، والاقتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبته ومحبة أتباعه.

خُلُق مع أولياء الأمور، ويتمثل في طاعة أوامرهم في المعروف، وبذل النصح لهم. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} (النساء: ٥٩)، وفي الحديث آنف الذكر: (الدين النَّصِيحَةُ ... لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ). وتعني إعانتهم على ما حُمِلوا القيام به من المسؤوليات، وتنبيههم عند الغفلة، وجمع الكلمة عليهم، ودفعهم عن الظلم بأحسن أسلوبٍ وألطف عبارة.

خُلُق مع عامة المسلمين، وذلك بأن يعامل المسلم أخاه المسلم بالأخوة والإيثار والنصح والمحبة والتعاون والنصرة والولاية. يقول النبي ﷺ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ ... بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ). وفي الحديث آنف الذكر (الدين النَّصيحَةُ ... لعامة المسلمينَ)، وتعني الشفقة عليهم، والسعي فيما ينفعهم، وكف الأذى عنهم، وأن يُحب لهم ما يُحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

خُلُق مع غير المسلم، وذلك بأن يتحلى المسلم مع غير المسلم بالعدل والإحسان وحُسْن القول والمعاملة، من ذلك قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة: ٨)، وقول النبي ﷺ: (ألا من ظَلَمَ مُعَاهِدًا أو انْتَقَصَهُ أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أو أَخَذَ منه شيئا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يوم الْقِيَامَةِ). والمعاهَد هو الذي يعيش في كنف المجتمع المسلم مسالماً.

بل إن الله سبحانه حين ذكر صفات الأبرار من عباده، كان فيما أثنى عليهم من صفاتهم أنهم: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} (الإنسان: ٨). أي؛ أنهم يقدمون الطعام للأسرى مع حاجتهم إليه، فأثنى على حسن التعامل معهم إلى تلك الدرجة العظيمة.

خُلُق مع الكبير، وخُلُق مع الصغير، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: (ليس مِنَّا من لم يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا). وقوله: (ليس منا) يدل على عِظم وخطورة هذا الخُلُق الذميم. فهو ليس على أخلاق المسلمين، ولا على نهجهم ومسلكهم في الحياة. وإذا لم يكن على أخلاق المسلمين ومسلكهم، فليحذر من عاقبة أمره، والطريق الذي اختاره لنفسه.

خُلُق مع الوالدين، و خُلُق مع الأبناء والبنات، و خُلُق مع الزوج والقرابة، و خُلُق مع الضيف والمعلم والصديق، و خُلُق مع البهائم والجمادات ... وهكذا.

يقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن في الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مُقَرَّرةً لا صلة لغيرهم بها، غير أن التعاليم الخُلُقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلمُ مكلَّفٌ أن يلقى أهل الأرض قاطبةً بفضائل لا ترقى إليها شُبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم ..الخ. وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آَمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت:٤٦). واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع الحاد: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} (البقرة:١٣٩). وحَدَثَ أن يهودياً كان له دَيْنٌ على النبي، فجاء يتقاضاه قائلاً: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطْلٌ ! فرأى عمر بن الخطاب

أن يُؤدب هذا المتطاول على مقام الرسول، وهَمَّ بسيفه يبغي قتْله. لكن الرسول ﷺ أسكت عمر قائلاً: (أنا وهو أولى منك بغير هذا، تأمره بحُسن التقاضي، وتأمرني بحُسن الأداء)، وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجرٍ أو كافرٍ. قال ﷺ: (دعوة المظلوم مُستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه)، وبهذه النصوص، مَنع الإسلام أبناءه أن يقترفوا أية إساءة نحو مخالفيهم في الدين. ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد

عن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله؟ فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟. سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه). ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول ﷺ لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها. ولكن النبي ﷺ أفهمهم ألا دوام لملكهم إلا بالخُلُق وحده. ومن أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة. ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة). إن الخُلُق في منابع الإسلام الأولى من كتاب وسنة هو الدين كله، وهو الدنيا كلها".

فشمول الأخلاق في الإسلام يمتد إلى جوانب الحياة ومكوناتها كلها، ولا يستثني شيئاً.

رابعاً- أخلاقٌ ثابتةٌ:

يعني ثبات الأخلاق في الإسلام أن الفضائل الأساسية للمجتمع من حقٍ وعدلٍ وصدقٍ ووفاءٍ وأمانةٍ وعفةٍ وإيثارٍ مرتبطة بأصول الشريعة ونظامها العام، ومن ثَمَّ فهي لا تتغير ولا تتأثر بتغير الظروف الاجتماعية، أو الأحوال الاقتصادية، أو وجوه المصلحة، مهما تبدلت وتغيرت ظروف الحياة، ومهما تقدم العلم والتقنية. والسبب في ثباتها أمران:

الأول: أن الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالفطرة البشرية، والفطرة تعني الخِلْقة، وهي لا تتغير ولا تتبدل، قال تعالى: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} (الروم: ٣٠)، وإنما تتغير وتتبدل الممارسات السلوكية المرتبطة بها، فتنحرف نتيجة الظروف والمؤثرات المحيطة بها، كما بينه ﷺ بقوله: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)، وقد نبه الرسول ﷺ في كثير من الأمور التي شرعها لنا إلى ارتباطها بالفطرة السليمة، فقال مرة: (خمسٌ من الفطرة)، وقال مرة أخرى: (عشرٌ من الفطرة). يقول الشيخ السعدي في بيان الصلة بين الخُلُق والفطرة من خلاله شرحه لحديث خصال الفطرة: "الفِطرة: هي الخِلقة التي خلق الله عباده عليها، وجعلهم مفطورين عليها؛ على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر ودفعه، وفَطَرهم حنفاء مستعدين، لقبول الخير والإخلاص لله، والتقرب إليه. وجعل تعالى شرائع الفطرة نوعين:

أحدهما: يطهر القلب والروح، وهو الإيمان بالله وتوابعه من خوفه ورجائه، ومحبته والإنابة إليه. قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} (الروم: ٣٠) فهذه تزكي النفس، وتطهر القلب وتنميه، وتذهب عنه الآفات الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة، وهي كلها ترجع إلى أصول الإيمان وأعمال القلوب. والنوع

الثاني: ما يعود إلى تطهير الظاهر ونظافته، ودفع الأوساخ والأقذار عنه، وهي هذه العشرة، وهي من محاسن الدين الإسلامي؛ إذ هي كلها تنظيف للأعضاء، وتكميل لها، لتتم صحتها وتكون مستعدة لكل ما يراد منها. والنظافة من الإيمان.

والمقصود: أن الفطرة هي شاملة لجميع الشريعة، باطنها وظاهرها؛ لأنها تنقي الباطن من الأخلاق الرذيلة، وتحلّيه بالأخلاق الجميلة التي ترجع إلى عقائد الإيمان والتوحيد، والإخلاص لله والإنابة إليه، وتنقي الظاهر من الأنجاس والأوساخ وأسبابها. وتطهره الطهارة الحسية والطهارة المعنوية. ولهذا قال ﷺ: (الطهور شَطْر الإيمان)، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (البقرة: ٢٢٢). فالشريعة كلها طهارةٌ وزكاءٌ وتنميةٌ وتكميلٌ، وحثٌ على معالي الأمور، ونهيٌ عن سفسافها، والله أعلم".

الثاني: أن الأخلاق الإسلامية نابعةٌ من الدين كما أسلفنا من قبل في ذكر الخصائص، وهو سبحانه أعلم بما يصلح أحوال الناس، ويحقق لهم السعادة والخير. قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الملك: ١٤). والدين بمثابة السياج الذي يحافظ على متطلبات الفطرة، ويعزز وجودها، ويحميها من الانحراف.

ويترتب على خاصية الثبات هذه أن الأخلاق مختلفةٌ عن التقاليد؛ لأن التقاليد تتغير بين الفينة والأخرى بتغير مسوغات وجودها، وأما الأخلاق فلا تتغير كما أسلفنا.

خامساً- أخلاق الإسلام تجمع بين الواقعية والمثالية:

فأما كونها واقعيةً، فلأنها عمليةٌ وقابلةٌ للتطبيق، ولا يستعصي على أحدٍ الإتيان بها.

وأما كونها مثاليةً أيضاً، فلأنها تستجيب لتطلعات مَنْ نفسه أبيةٌ تتوق إلى معالي الأمور، وتسعى للتحلي بالفضائل والقيم، ولا يرضى أن يكون كعامة الناس، ففسح الشارع له في ذلك.

فالإسلام إذاً راعى في تشريعه الأخلاقي استعداداتِ هؤلاء وهؤلاء، ولم يحملِ الناسَ على ما لا يطيقون، أو على ما يمكن أن تَمَلَّه نفوسُهم، وتتقاصر عنه هِمَمُهم. ومن ثَمَّ نجده شرع العدل بأن يصل كل ذي حق إلى حقه، لكنه في الوقت ذاته حثَّ على الإحسان، المتمثل في الصفح والتجاوز، وهو فوق العدل. قال تعالى في تقرير مبدأ العدل والإحسان معاً: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (الشُّورى:٤٠)، وقال أيضاً: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} (النحل:١٢٦). فالشطر الأول من الآيتين يفيد المثلية وهي مقتضى العدل، والشطر الثاني منهما يفيد التجاوز والصفح والصبر، وهو المثالية والإحسان.

ومما يجدر ذكره أن مثالية الأخلاق الإسلامية واقعية، بمعنى أنه يُطيقها معظم الناس.

سادساً- أخلاقٌ وسطٌ:

الوسطية سمة الأخلاق الإسلامية، وسمة الأمة المسلمة. قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} (البقرة: ١٤٣) أي عدولاً خياراً لا غلو ولا تطرف. وحذرنا ﷺ في أحاديث كثيرة من الغلو، فقال ﷺ : (هلك المتنطعون) وكررها ثلاثاً، وقال: (إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ). ويتجلى هذا الاعتدال في تلبية الشرع لمختلف حاجات الإنسان ورغباته، مع ضبطها في نفس الوقت بما يحافظ عليها ويبقيها ضمن دائرة النفع والخير.

فعلى سبيل المثال نجد أن الإسلام يحث على:

الحكمة، وهي فضيلةٌ خُلُقية، وتأتي بين رذيلتين، هما الخِبُّ (أي المبالغة في الاتصاف بالمكر والحيلة وسوء الظن) والبَلَهُ (أي المبالغة في السذاجة والسفه). قال تعالى في الثناء على الحكمة: {يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً} (البقرة: ٢٦٩).

السخاءُ، وهو خلقٌ كريمٌ ووسطٌ بين رذيلتين هما: الإسراف والتقتير. قال تعالى في الثناء على عباد الرحمن: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (الفرقان: ٦٧).

الشجاعة، وهي خلقٌ كريمٌ ووسطٌ بين رذيلتين هما: التهور أو زيادة الإقدام على الأمور المحظورة التي يوجب العقل الإحجام عنها. قال تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة: ١٩٥). والجُبن أو المبالغة في الخوف والحذر بما تأباه الرجولة والمروءة.

العفة، وهي خلقٌ كريمٌ، وتأتي وسطاً بين رذيلتي الشره (المبالغة في طلب الشهوة واللذات) والخمود (القصور في الشهوة بحيث لا تدفع صاحبها نحو تحصيل أسبابها).

الحياء، وهو خلقٌ كريمٌ، ويأتي وسطاً بين رذيلتي الوقاحة وصفاقة الوجه من جهة، والخور والمهانة من جهة أخرى.

التواضع، وهو خلقٌ كريمٌ، ووسطٌ بين رذيلتي الكِبْر من جهة، والذِّلة من جهة أخرى.

وهكذا فما من صفة أخلاقية جاء بها الإسلام، إلا وهي وسطٌ بين رذيلتين.

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) السبب في ثبات الأخلاق الإسلامية أنها:

أ- مرتبطة بالفطرة . **ب- مرتبطة بالأعراف والتقاليد .**

ج- قديمة . **د- جميعها صحيحة .**

(٢) الحياء خلقٌ كريمٌ، ويأتي وسطاً بين رذيلتين هما :

أ- الوقاحة وصفاقه الوجه . **ب- الوقاحة والمهانة .**

ج- الخور والمهانة . **د- جميعها صحيحة .**

المحاضرة الرابعة : وسائل اكتساب الأخلاق

الأخلاق قابلة للتغيير والاكتساب :

يدَّعي بعض الناس أن الخُلُق كلَّه فطريٌ، ومن جنس الخِلْقَة، و لا يقبل تغييراً، وأنَّ مَنْ يطمعُ في تغييره كمَنْ يطمع في تغيير خَلْق الله تعالى!. وربما استدل بعضهم بقوله ﷺ: (خَلَق الله الخَلْق، فلما فرغ منه قامت الرحم..) ، بمعنى أن الله خَلَق الخلْق، وفرغ منه، وقُضي الأمر فلم يعد من مجالٍ للتغيير!. وهذا تصورٌ خاطئٌ، واستدلالٌ باطلٌ من وجوه:

أولاً: أن الحديث وارد في الخَلْق، والكلام في الخُلُق، وهما مختلفان.

ثانياً: وردت نصوصٌ كثيرةٌ في الشرع تحث على التحلي بالخُلُق الحسن، وتَعِدُ بالثواب عليه، وتحذر من الخُلُق السيء، وتتوعدُ بالعقاب عليه، كقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس:٩- ١٠)، وقوله ﷺ (وخالِق الناس بخُلُقٍ حَسَن)، وقوله ﷺ: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ). ولولا أن تغيير الخُلُق إلى الأحسن ممكنٌ، لما حثَّ عليه الشارع.

ثالثاً: إن التغيير في الأخلاق واقعٌ ملموسٌ ومشاهدٌ، لا يُنكره إلا معاند.

رابعاً: لو لم يكن تغيير الخُلُق ممكناً لبطلت فائدة الوعظ والنصح، والأمر والنهي، ولما جاز عقلاً أن يقال للمرء لِمَ فعلتَ؟ ولِمَ تركتَ؟ ولنتج عن ذلك إبطال دور العقل، أو فائدة التدريب "ولأدَّى إلى ترك الناس همجاً مهملين، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه، بغير سياسة ولا تعليم، وهذا ظاهر الشناعة جداً".

خامساً: إذا كان التغيير في بعض البهائم ممكناً، كانتقال الفَرَسِ الجامح إلى السلاسة، والكلب والصقر بالتعليم والتدريب إلى أن يصطاد لصاحبه لا لنفسه، فكيف يكون ممتنعاً في الإنسان مع وفور عقله؟.

ولعل شبهة هؤلاء نابعة من الخلط بين ما هو من قبيل الخِلْقة، فلا يقبل التغيير ،كأصل الغضب والغيظ والشهوة، وما هو من قبيل الخُلُق فيقبل التغيير، وهو السيطرة والتحكم في تلك القوى، وتوجيهها للخير من خلال مجاهدة النفس. يقول أحمد بن قدامة: "ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قمعها بالكلية فلا!. كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، أو شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه.

ويمكن إجمال وسائل اكتساب الأخلاق فيما يأتي:

أولاً- التدريب العملي:

لعل أهم الوسائل التي تعين المرء على اكتساب الأخلاق التدريب العملي، وذلك من خلال مجاهدة النفس، وحمْلِها على الأعمال التي يتطلبها الخُلُق المراد اكتسابه، وقد أشرنا قبل قليل إلى أن طباع البهائم تتغير بالتدريب والممارسة وهي لا تعقل، فكيف بالإنسان العاقل؟!. ومن ثَمَّ قال العلماء: إن من أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلُق الجود مثلاً، فإن سبيله إلى ذلك تَكلُّفَ تعاطي فعل الجود -وهو بذل المال- في البدايات، ثم يستمر على ذلك البذل، ويطالب نفسه به، ويُواظب عليه تَكَلُّفاً، مجاهداً نفسه، حتى يُصبحَ ذلك خُلقاً له، وطبعاً فيه، فيتيسرَ عليه، ويصير به جواداً. ومن أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلُقَ التواضع وقد غلب عليه الكِبْرُ، فطريقه أن يواظب

على أفعال المتواضعين مدةً مديدةً، يجاهد نفسه فيه، ويتكلفُ إلى أن يصبح ذلك خُلُقاً له وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به متواضعاً.

ويمكن توضيح ذلك من خلال مثالٍ ملموسٍ من واقع حياتنا، وهو رغبة أحدنا في أن يصبح (خطاطاً)، فإننا جميعاً نحكم بأن سبيله إلى تحقيق هذه الغاية هو أن يتعاطى الخط، ويواظب عليه مدة طويلة، ويقلد الخطاطين في خطهم، ويتشبه بهم تكلُّفاً في البداية، حتى يصير الخطُ الحسَنُ صفةً راسخةً في نفسه، فيصدر منه طبعاً وسجيةً دون تكلف. وكذلك من أراد أن يصبح فقيهاً، فإن سبيله إلى ذلك تعاطي فعل الفقهاء، من كثرة القراءة في كتب الفقه، وتكرار النظر والتأمل فيها، حتى ينعكس منه على قلبه صفة الفقه، فيصير فقيه النفس.

وفي بيان هذا الدور المهم للتدريب العملي ورياضة النفس على الفضائل يقول النبي ﷺ: (مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وما أُعْطِيَ أحَدٌ عطاءً خَيْراً وأوسَعَ مِنْ الصَّبْرِ). أي أن من دَرَّبَ نفسه وحملها على ما يريد، وجد الاستجابة له بمشيئة الله. فالبداية تكون من العبد، ثم يأتيه التوفيق والمعونة من الله تعالى. مَثَلُه في ذلك مثل البدن. "فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى شيئاً فشيئاً بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تُخْلَقُ ناقصةً، قابلةً للكمال، وإنما تكمل شيئاً فشيئاً بالتربية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم".

ثانياً- الجليس الصالح والبيئة الصالحة:

وهذا أيضاً من أهم الوسائل في اكتساب الأخلاق، ومن ثَمَّ جاءت النصوص الشرعية الكثيرة في الحث على حسن اختيار الأصحاب، والحذر كل الحذر من خُلَّان السوء. قال تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} (الزخرف ٦٧)، وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} الفرقان(٢٧- ٢٩). وقال ﷺ: (الْمَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أحدكم من يُخَالِلُ)، والصاحب ساحبٌ كما يُقال، والطبع يسرق من الطبع الخير والشرَّ معاً. ولقد شبَّه الرسول الله ﷺ مجالسة الصالحين والفاسدين ببائع المسك ونافخ الكير، فقال ﷺ: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً). يقول الإمام النووي في تعليقه على الحديث: "في الحديث تمثيله ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فُجْرُه وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة".

ومما ورد أيضاً في التحذير من أثر البيئة الفاسدة، قول النبي ﷺ: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَط، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ؛ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ). فقد طالبه الرجلُ العالِمُ بتغيير بيئته الفاسدة. قال النووي: "قال العلماء: في هذا استحبابُ مفارقة التائب المواضعَ التي أصاب بها الذنوب، والأخدانَ المساعدين له على ذلك، ومُقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صُحبة أهلِ الخيرِ والصلاحِ والعلماءِ والمتعبدين الورعين، ومنْ يُقتدى بهم، ويُنْتفَعُ بصحبتهم".

ولا شك أن البيئة تزداد خطورة وأهمية كلما كانت ألصق بحياة المرء، وتزداد هذه الخطورة على الخصوص في السني الأول من حياة الولد، حيث تكون مرحلة النشأة والتكوين، ويكون القلب كالمرآة الصافية، فتنطبع فيه المشاهد بسهولة ويسر، وتتمكن منه، ومن ثَمَّ جاء التحذير النبوي من الدور السيء الذي يمكن أن يمارسه الأبوان في انحراف ولدهم عن الحق، فقال ﷺ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ).

ثالثاً- القدوة الصالحة:

وهذه أيضاً من الوسائل المهمة في تربية الفرد وتنشئته نشأة صالحة، إذ الإنسان بطبعه يميل إلى تقليد غيره ممن يُعجب بهم، فالصغير يقلد الكبير، والضعيف يقلد القوي، والوضيع يقلد الشريف ... وهذا واقعٌ محسوسٌ لا ينازع فيه أحد. وقد قصَّ الله سبحانه علينا في القرآن الكريم قصص الأنبياء السابقين عليهم السلام، وما عانوه من أنواع الأذى والشدائد في سبيل دعوتهم إلى الله، فما وهنوا، ولا كَلُّوا، ولا مَلُّوا، ولا يئسوا من نصر الله ورحمته، ثم أمر نبيه محمداً ﷺ أن يقتدي بهم فقال: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} (الأنعام: ٩٠).

وكذلك قَصَّ الله علينا كثيراً من جوانب العظمة في شخصية الرسول ﷺ (كتعظيمه لله، ومحبته وإخلاصه له، وخشيته منه، ورأفته ورحمته بالعباد ...)، ثم أمرنا بالاقتداء به، فقال عز شأنه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} (الأحزاب: ٢١).

وقال ﷺ: (اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ). أي اقتدوا بهم وأطيعوهم تهتدوا وترشدوا. وفي حديث آخر: (فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ)، أي الزموا طريقتهم وتمسكوا بها فإنهم على الحق المبين.

ولا شك أن مجالات الاقتداء كثيرة ومتنوعة، فهذا قدوةٌ في القوة في الحق، وذاك في الورع، وثالث في السخاء، ورابع في الشجاعة،وخامس في بذل الجاه والسعي في قضاء حاجات الناس.

وإذا ما أردنا أن نغرس الفضائل في أنفسنا أو مجتمعنا، فإن خير وسيلة إليه هي وضع نماذج عملية من سير العظماء بين أيديهم، وذلك لأن:

وجود القدوة الصالحة، والنموذج الطيب، يُعطي الآخرين قناعةً بأن بلوغ هذه الفضائل أمرٌ ممكنٌ، فيندفعُ أكثر إلى التخلق بمثل أخلاقهم.

القدوة الصالحة محل تقدير وإعجاب الناس، وهو ما من شأنه أن يدفع الشخص المحروم من هذا التقدير والإعجاب إلى تقليد القدوة ومحاكاته لعله يصبح يوماً ما مثله، ومع مرور الوقت تتحول هذه المحاكاة إلى خُلُق.

النفس البشرية تتأثر بالأمور العملية أكثر من تأثرها بالأمور النظرية، وإن موقفاً عملياً واحداً ربما يؤثر أكثر من عشر محاضرات نظرية. وإن مما قيل في التأكيد على الأثر البالغ للفعل: "عَمَلُ رجلٍ في ألف رَجُل، أبلغُ من قولِ ألفِ رجلٍ في رجل".

إن أكثر ما يعرفه الناس من سيرة أبي بكر ﷺ، ثباته يوم وفاة النبي ﷺ، وقوله في الناس: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، وموقفه الحازم من المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ.

وأكثر ما يعرفه الناس عن عمر ﷺ شدته في الحق، حتى قال فيه النبي ﷺ (إيهاً يا ابنَ الخَطَّابِ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجاً قَطُّ، إِلَّا سَلَكَ فَجاً غَيْرَ فَجِّكَ).

وأكثر ما يعرفه الناس عن عثمان ﷺ بذله وعطاؤه الكبير في سبيل الله كتجهيزه لجيش العسرة، وشرائه لبئر رومة ووقفه على المسلمين.

وأكثر ما يعرفه الناس عن علي ﷺ شجاعته وإقدامه المنقطع النظير، وأن الله فتح خيبر على يديه عندما أعطاه الرسول ﷺ الراية وقال: "لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْه) فإذا هو عليٌ ﷺ.

وأكثر ما يعرفُ الناس من سيرة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله امتناعه عن القول بخلق القرآن، وتحمله التعذيب والسجن نصرةً للحق حتى قال فيه علي بن المديني رحمه الله: "إن الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المِحْنة".

ومن هنا فإن من واجبنا إبراز النماذجَ الصالحةَ من أسلافنا، وإحياء سِيَر العلماء الربانيين، والزهاد العابدين، والقادة الفاتحين، والمربين الناجحين؛ لتتحرك الهمم نحو التأسي بهم، والسير على نهجهم، والتخلق بأخلاقهم.

رابعاً- الضغط الاجتماعي:

ونعني به المجتمع المسلم، بما يشكله من رقابة على سلوك الأفراد، ويُلزمهم بفضائل الأخلاق. وذلك أن الفرد يعيش مع الناس داخل هذا المجتمع أو ذاك. يحتاجهم في شؤون حياته، ولا يستغني عنهم، ويحتاج منهم التقدير والاحترام. فإن أقدم على تصرف غير أخلاقي، وجد من يُحاسبه على سلوكه ذاك، ويُشعره بأن سلوكه غير مقبول، وأن عليه أن لا يعاوده.

ويوماً بعد يوم، ومع هذه الرقابة من المجتمع، والضغط الذي يشكله على السلوك المنحرف، فإن صاحبه سيهجره، وسيبدله بسلوكٍ مقبول، يجلب له الرضا والاحترام والتقدير ممن حوله، وسينتهي الأمر باستقامة خُلُقه.

والضغط الاجتماعي أعم من البيئة الصالحة التي سبق الحديث عنها!.

إذ البيئة تقتصر على أولئك الذين يعايشهم المرء بشكل مباشر، وبصورة مستمرة كبيته ومدرسته وأصدقائه ومحل عمله.

وأما الضغط الاجتماعي فنعني به المجتمع كله، بمختلف طبقاته وأطيافه وفئاته، ومن خلال مختلف وسائل الإعلام من جرائد ومجلات وقنوات وإذاعات وخطب وحوارات، فيكون مسؤولاً أمامها جميعاً بما تُكَوِّنه من رأيٍ عامٍ من القرَّاء والمستمعين على امتداد البلاد أو العالم الإسلامي لمحاسبة المنحرف.

وهناك نصوصٌ كثيرةٌ من الكتاب والسنة تؤصل لهذه المسؤولية، منها:

قوله ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ... فاسقون} (المائدة: ٧٨-٨١)، ثُمَّ قَالَ: كَلاَّ وَاللَّهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً) فالحديث يبين وجوب الاستمرار في إنكار المنكر، واستمرار الضغط على مرتكبه من مختلف أبناء المجتمع حتى يرتدع ويَكُفَّ عن فعله الشائن، وإلا حلَّ بهم ما حلَّ ببني إسرائيل من العقوبة والعياذ بالله.

ومنها قوله ﷺ: (مَثَلُ القَائِمِ فِي حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي

نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَميعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أيدِيهِمْ نَجَوا وَنَجَوْا جَميعاً). ومعنى القائم في حُدُودِ اللهِ: المدافع عنها. وهو عكس الواقع فيها. فهذا أيضاً يؤكد مبدأ المسؤولية الجماعية، ويشبه أفراد المجتمع بمختلف فئاتهم بالراكبين في سفينة واحدة، يجمعهم مصير واحد، وإذا حلَّ بهم الغرق فلن يستثني أحداً، وسينزل بالجميع، المنحرف لانحرافه، وغيره لسكوته عن الإنكار، كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} (الأنفال: ٢٥).

خامساً- سلطان الدولة:

ونعني به السلطة الحاكمة بما تملكه من قوة ردع، وأجهزة رقابة ومحاسبة. فإنها حين تحاسب المنحرف وتعاقبه على تصرفاته غير الأخلاقية تجعله يكف عنها. وفي ذلك يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ : "إن الله لَيَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآن". أي أن بعض الناس قد لا تردعه نداءات كتاب الله، وما فيه من الترغيب والترهيب، لأن الضعف قد استبد بإيمانهم، وأصبحت قلوبهم ميتةً أو قاسية! وهؤلاء إنما يردعهم الرهبة من السلطان، والخوف من العقوبة. ويوماً بعد يومٍ، ومع مرور الزمن، يتحول هذا الامتناع القسري عن فعل المنكر إلى خُلُقٍ لصاحبه.

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) قول النبي ﷺ: (مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ) يدل على أن من الأخلاق :

أ- ما يتأتى بالتدريب العملي .
ج- ما يتأتى بالقدوة الحسنة .
ب- ما هو فطري .
د- ما يتأتى بالبيئة الصالحة .

(٢) يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ : "إن الله لَيَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ :

أ- بالأصحاب .
ج- بالوالدين .
ب- بالقرآن .
د- بالنصيحة .

المحاضرة الخامسة : الإلزام الخُلُقي والمسؤولية والجزاء

الإلزام الخُلُقي والمسؤولية والجزاء :

يرتبط الإلزام الخُلُقي، والمسؤولية الخُلُقية، والجزاء الخُلُقي، ببعضها ارتباط العلة بالمعلول. فيكون الإلزامَ أولاً، فتترتب عليه المسؤوليةُ، فيلزم منهما الجزاءُ.

وفيما يلي تعريفٌ موجزٌ بكلٍ منها:

أولاً : الإلزامُ الخلقي:

تعريف الإلزام الخُلُقي: الإلزام في اللغة: الفرض والإيجاب. وهذا الإلزام يمكن أن يكون مصدره المكلفُ نفسه بأن يُلزم نفسه شيئاً، أو يكون مصدره الشرعُ بمقتضى خطابه بأمرٍ أو نهيٍ. ويسمى تكليفاً.

وعليه فيمكن تعريف الإلزام الخُلُقي بأنه: تكليفٌ بتشريع خُلُقي. أو بعبارة أخرى: تكليفٌ صادرٌ من الشرع بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُقٍ مذموم.

وهذا التكليف أعم من أن يكون جازماً أو غير جازم، وفي جانب الفعل أو الترك. مثال السلوك الخُلُقي المطلوب فعله على سبيل الحتم والإيجاب بر الوالدين. ومثال المطلوب فعله ولكن ليس على سبيل الحتم والإيجاب، إماطة الأذى عن الطريق، وهو المندوب. ومثال المطلوب تركه طلباً جازماً الكِبْر والحسد، وهو الحرام. ومثال المطلوب تركه ولكن ليس على سبيل الحتم أن يشرب الماء في نفس واحدٍ، أو أن يتنفس في الإناء، وهو المكروه.

مصادر الإلزام الخلقي: إن مصدر الإلزام الخُلقي –كغيره من الأحكام الشرعية- إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: {إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} (يوسف: ٤٠)، وقال جل جلاله: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} (الأعراف: ٥٤). فالتشريع حقٌ لله وحده، ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد ﷺ، فقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} (الحشر: ٧)، وقال أيضاً: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} (آل عمران: ٣٢). فكان اتباعنا لنبينا محمد ﷺ استجابةً وامتثالاً لأمر الله سبحانه.

وأما ما يذهب إليه بعض فلاسفة الأخلاق من غير المسلمين من اعتبار العقل والضمير مصدراً للإلزام الخُلُقي فهو مردود؛ لأن العقل وإنْ كان يُدرك في كثير من الأحيان الحسن والقبح في الأشياء؛ كأن يدرك أن الصِّدْقَ حَسَنٌ، والكذبَ قبيحٌ، والأمانةَ حسنةٌ، والخيانة قبيحةٌ، وكذلك يشعر الضمير بالراحة عند ممارسة كثير من التصرفات الحسنة كالصدق والعدل، ويشعر بالانقباض والألم عند ممارسة التصرفات السيئة كالكذب والظلم؛ إلَّا أنَّ مناط الثواب والعقاب هو الشرع، وليس العقل أو الضمير. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن العقول والضمائر وإن اتفقت في بعض العناوين العريضة فإنها ستختلف كثيراً في حُكْمها عندما تتجاوز تلك العناوين إلى التفاصيل والتطبيق، فما يراه هذا عدلاً، يراه غيره ظلماً، وما يراه تواضعاً، يراه غيره مذلة ... وهكذا، فكان لابد من مرجع يتم التحاكم إليه عند الاختلاف، ويكون الفيصل في تحديد المفاهيم والضوابط والآثار، فكان هذا المرجعُ والحَكَم هو الشرع.

يُضاف إلى ذلك أن العقول والضمائر بمفردها لن تستطيع الوصول إلى كل شيءٍ، وتُصدِرَ حكمها فيه، ولذلك أمدها الله بنور الوحي ليضيء لها الطريق فتمضي على هدى من الله.

العوامل التي تحمل على الالتزام: هناك جملة من العوامل تحمل المرء على الالتزام، وتعينه عليه، وهي تنقسم إلى داخلية وخارجية:

العوامل الداخلية: ويمكن حصرها في أربعة: الإيمان والعقل والفطرة والضمير.

الإيمان: ونعني به الإيمان بالله وبرسالاته وباليوم الآخر، فإن لها أكبر الأثر على الالتزام بالأخلاق الحميدة.

دليل ذلك أن كثيراً من التصرفات السلوكية الحميدة لا يجد المرء لها سبباً ملموساً إلا الطمع بما عند الله سبحانه، كما في مقابلة الإساءة بالإحسان مع القدرة على الرد، والإنفاق على من لا يُنتظر ولا يُتأمَّل منه المقابل، وحرمان المرء نفسه من شيء وإيثار غيره مع شدة حاجته إليه، كما قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً} (الإنسان: ٨-٩).

يقول ابن القيم رحمه الله: "الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه". وهذا الأمر مشاهدٌ ملموسٌ لا ينكره إلا مكابرٌ معاندٌ.

العقل: وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعةً ومفيدةً أقْدَمَ عليه، وإذا رأى أنها ستكون ضارةً أو أليمةً أحجمَ عنه. فالعقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على السلوك الخُلُقي الحميد، أو الإحجام عن التصرف المشين. يقول الله تعالى مخبراً عن أهل النار وتعطيلهم لعقولهم وبأنه كان سبب استحقاقهم النار: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك: ١٠).

يقول ابن القيم رحمه الله: "أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفِطَر استحسان الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، ونصيحة الخَلْق، والوفاء بالعهد، وحفظ الجوار، ونصر المظلوم، والإعانة على نوائب الحق، وقِرى الضيف، وحمل الكَلّ، ونحو ذلك. ووضع في العقول والفِطَر استقباح أضداد ذلك".

الفِطْرة: فقد غرس الله سبحانه في الإنسان الفِطْرة، وجعلها تهفو إلى الإيمان والخُلُق الحميد إذا تركت وشأنها، ولم تتدخل الأطراف الخارجية. فالعفة، والسخاء، والحياء، والصدق، والشجاعة، والحلم، كلها قيم أخلاقية راقية ترتاح لها الفِطَرُ السويةُ، وتأنسُ بها، وتنفر من أضدادها من الخِسَّة، وصفاقة الوجه، والكذب، والجبن، وبذاءة اللسان.

يقول ابن القيم: "والله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه بأمرين هما أصل السعادة، أحدهما: أنْ خَلَقَهم في أصل النشأة على الفِطرة السليمة، فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجانه عنها... فإذا تركت النفس وفطرتها لم تُؤْثِرْ على محبة باريها وفاطرها وعبادته وحده شيئاً، ولم تشرك به، ولم تجحد كمال ربوبيته، وكان أحبَّ شيءٍ إليها، وأطوعَ شيءٍ لها، وآثر شيء عندها". يقول الرسول ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء). ثم يقول أبو هريرة ﷺ : "واقرؤوا إن شئتم: {فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ} (الرُّوم: ٣٠)".

الضمير: (أو ما يسمى بالوازع الديني) ويُقصد به ذلك الشعور الخفي الذي يُحِسُّ به المرءُ في أعماق نفسه، يناديه ويدفعه إلى ممارسة فعلٍ أو الكف عنه. وحين يستجيب لندائه يغمره شعور عارم بالراحة واللذة، بعكس ما لو تجاهله، حيث يشعر بالانقباض والألم النفسي (أو ما يسمى بوخز الضمير)، ويلوم ذاته على ذلك التقصير، ولا يريد أن يطلع عليه أحد.

والضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سِنِي حياته، من خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به، وهنا يأتي دور الدين، ويكون الأساس في نشأة هذا الضمير وصياغته ورعايته. فإذا كان هذا الدور قوياً فاعلاً، جعل من هذا الضمير الخفي، أو الوازع الديني رقيباً على تصرفاته، ودفعه إلى طيب الأفعال والأقوال، ولو لم تكن نصوص الشرع آمرةً بها، وكفته عن الفعل الذي لا يليق، ولو لم تكن نصوص الشرع ناهيةً عنها. ولعل هذا هو المقصود بقول النبي ﷺ(والإِثْمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه الناس). فالمقصود صدر المسلم الذي تشرب الإيمان، وتربى على قيمه.

العوامل الخارجية: ويمكن حصرها في عاملين رئيسين:

المجتمع: أمر الله سبحانه جماعة المسلمين بمراقبة سلوك الأفراد داخل المجتمع، والأخذ على يد الشارد منهم، المنحرف عن جادة الحق، ومعاقبته إذا ارتكب محظوراً يستدعي العقوبة ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. كما في قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ} (المائدة: ٣٨)، وقوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ} (النور: ٢)، وقول الرسول ﷺ: (من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

وعليه فإن الأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم، وتأخذ على يد الظالم والعابث، وإلا نال جميعهم شؤم المعصية وشرها، كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} (الأنفال:٢٥).

السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة (ولي الأمر أو من ينوب عنه) هو حملُ الناسِ على الالتزام بحدود الشرع الحنيف أمراً ونهياً، والتحلي بمكارم الأخلاق، والابتعاد عن الرذائل. وقد عبر عنه الإمام الماوردي رحمه الله بقوله: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا". وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وسياسة الدنيا تكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

ولا شك أن ولي الأمر لن يستطيع تحقيق ذلك بمفرده، بل لا بد أن يعاونه فيه الوزراء والمسؤولون، وهو المعبر عنهم بالسلطة الحاكمة.

خصائص الإلزام الخُلُقي:

يمتاز الإلزام الخلقي في الإسلام بجملة من الخصائص أهمها:

أنه إلزامٌ بقدر الاستطاعة. فلا تكليف إلا بما يُطاق. قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة: ٢٨٦). وهذا مبدأ يقتضيه العدل الإلهي، كما يقتضيه الخُلُق القويم.

أنه إلزامٌ بما فيه يُسر وسهولة على الناس. ومن ثَمَّ فلا تكليف بما فيه حرج أو مشقة لم تعتدها النفوس. قال تعالى: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ} (البقرة: ١٨٥). وقال تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} (الحج: ٧٨).

أنه إلزامٌ يراعي الأحوال الاستثنائية، كما في إعفاء ذوي الأعذار من العجزة والضعفاء والمرضى عن الجهاد. قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ} (الفتح: ١٧). وكما في الترخص بالتلفظ بالكفر باللسان مع بقاء القلب مطمئناً بالإيمان. قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً} (النحل: ١٠٦).

ثانياً: المسؤولية الخلقية:

تعريف المسؤولية: إذا صدر الإلزام من طرفٍ، نتج عنه بالضرورة مسؤولية الطرف المقابل، وإلا كان عبثاً، ولم يكن إلزاماً.

وقد عُرِّفتْ بأنها: "التزامُ الشخص بما يَصدر عنه قولاً أو عملاً".

أو: تَحملُ الشخصِ النتائجَ المترتبة على ما التزم به من قولٍ أو عملٍ أو تركٍ.

شروط المسؤولية: ليكون الإنسانٍ مسؤولاً عن أفعاله وأقواله، لا بد من توافر جملة شروط هي:

البلوغُ؛ وإلا فلو كان صغيراً فلا تكليف ولا مسؤولية عليه، لقصور فهمه عن إدراك معاني خطاب الشرع، يقول النبي ﷺ: (رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ).

العَقْل؛ وإلا فلو كان مجنوناً فلا تكليف ولا مسؤولية، لأنَّه لا يَعْقِل أمر الشرع ولا نهيه. وقد مرَّ آنفاً حديث: (رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق).

الاختيار؛ أي أن يكون نابعاً من إرادته، مختاراً فيه؛ وإلا فلو كان مكرهاً لم يتحمل مسؤولية تصرفه؛ لأنه بذلك يكون قد تحول إلى آلة لتنفيذ الفعل، ولا يُنسب الفعل إليه. قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً} (النحل: ١٠٦)، فبين أن الإثم مرفوع عن المكره ولو نطق بكلمة الكفر مادام يجد قلبه مطمئناً بالإيمان، وفي الحديث أيضاً يقول الرسول ﷺ : (إنَّ اللَّهَ وَضَعَ عن أمتي الخطأ والنسيَانَ وما استُكْرِهُوا عليه).

النية؛ إذ هي مناط المسؤولية عند الله سبحانه، وقبول العمل مرهون بها، وليس بظاهر العمل، يقول النبي ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)، ويقول الله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} (البقرة: ٢٢٥). واللغو كقول: لا والله، بلى والله، لا يريد الحلف حقيقة، بل سبقه إليه لسانه. فمثل هذا لا يؤاخذ على يمينه، وإنما يؤاخذ به من يريده، وقد عزم عليه قلبه.

ومن تصدق على فقير، ونيته السمعة والرياء، لم يكن له عند الله شيء.

العلم بما هو مطلوب منه، وبحكمه الشرعي أهو محرم أم واجب أم مباح.

ولا يشترط العلم حقيقة، بل يكفي إمكانية العلم لتتحقق المسؤولية، بأن تكون فرصة معرفة الحكم متاحة له بالتعلم المباشر أو السؤال، فإن قصَّر ولم يسأل ولم يتعلم، كان مؤاخذاً، ولم يُعذر بجهله.

كون العمل مما يطاق؛ وإلا فلو كان فوق طاقته سقطت مسؤوليته، ولم يحاسب عليه، لقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة: ٢٨٦).

خصائص المسؤولية:

تتسم المسؤولية في الإسلام بأنها شخصية (أو فردية) بالدرجة الأولى. بمعنى؛ أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فحسب، دون تصرفات غيره أياً كان، ومهما كانت درجة قرابته. فلو قتل الأب شخصاً كان القصاص عليه دون ولده، وكذلك العكس. ولو شرب الولد خمراً لم يجلد والده عنه، وكذلك العكس. ودليله قول الله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} (المدثر: ٣٨)، وقوله تعالى: {وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى} (الإسراء: ١٥).

غير أن هناك مستويات أخرى من المسؤولية ملقاة على عاتق المسلم، منها: المسؤولية التقصيرية عن مَنْ هُم تحت ولايته، كالأب في أسرته، ومدير المدرسة في مدرسته، وضابط الجيش في كتيبته، ومدير الشركة في شركته، وولي الأمر فيما تحت ولايته. يقول ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

ومنها ما يمكننا أن نسميها المسؤولية الاجتماعية –أو التكافلية- وهي مسؤولية كل مكلف في المجتمع عن القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المنحرف. يقول ﷺ : (من رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ).

وتتعدد الجهات التي يمكن لها أن تحاسبنا وأن نكون مسؤولين أمامها، وتتمثل في: المسؤولية أمام اللّه تعالى، والمسؤولية أمام السلطة الحاكمة، والمسؤولية أمام المجتمع، والمسؤولية أمام نفسه وضميره.

ثالثاً : الجزاء الأخلاقي:

تعريفه: هو المكافأة أو الأثر المترتب على الفعل الأخلاقي. سواءٌ أكان هذا الجزاء ظاهراً كالسجن، أم باطناً كتأنيب الضمير. وسواءٌ أكان في الدنيا، أم في الآخرة.

أنواع الجزاء الأخلاقي:

ذكرنا آنفاً أننا مسؤولين ومحاسبين أمام جهات متعددة، وهي الجهات نفسها التي تكافئ أو تعاقب على السلوك الأخلاقي:

فهناك جزاءٌ رباني في الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما.

ففي حالة الطاعة يكون له من الله سبحانه في الدنيا الرضا والحفظ وتيسير الأمور. قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} (الطلاق: ٢- ٣). وفي الآخرة يكون له الجنة والكرامة. قال تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً} (الكهف: ١٠٧).

وفي حالة المعصية والاستمرار عليها يكون له في الدنيا المصائب وضنك العيش. قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ} (النحل: ١١٢). وقال تعالى: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} (طه: ١٢٤).
وفي الآخرة يكون له النار. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ} (البيِّنة: ٦).

وهناك جزاء من السلطة الحاكمة: وتتمثل في مكافآتٍ وتكريم في حال الطاعة، وعقوباتٍ في حال المعصية، في حق من ينتهك محارم اللّه زجراً لهم وردعاً لهم ولغيرهم ممن تسول له نفسه ارتكاب مثل تلك الانتهاكات، وهي إما حدٌ أو تعزير:

والحدُّ: عقوبة نصَّ عليها الشرع في حق من يقترف جرائم معينة، وهي سبعة: الزنا، والسرقة، والقذف، وشرب الخمر، والرِدَّة، والحِرابة، والقصاص.

والتعزير: عقوبة تأديبية على معصية لا حدَّ فيها ولا كفارة، ترك الشرع سلطة تقديرها للقاضي أو لولي الأمر، وتكون دون الحدِّ.

وهناك جزاءٌ من المجتمع: ويتمثل في الثناء العطر، والذكر الطيب، والتكريم في حال الطاعة، والتوبيخ والذم في حال التمرد والمعصية.

وأخيراً هناك جزاءٌ نفسيٌ داخلي يلمسه المسلم من نفسه بالرضا عند الطاعة، والألم عند المعصية، وهو ما يسمى برضا الضمير، أو تأنيبه ووخزه. وقد أخبر الرسول ﷺ عن ذلك الشعور واعتبره من علامات الإيمان، فقال: (من سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك الْمُؤْمِنُ). وهذا خاص بالمؤمن.

وأما غير المؤمن فلا يبالي بما فعل. يقول عبد الله بن مسعود ﷺ : "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عليه، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ على أَنْفِهِ فقال بِهِ هَكَذَا. قال أبو شِهَابٍ بيده فَوْقَ أَنْفِهِ".

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) تكليفٌ صادرٌ من الشرع بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُقٍ مذموم

أ- الإلزام . **ب- الجزاء .**

ج- المسؤولية . **د- جميعها صحيحة .**

(٢) يتكون الضمير في الفرد في أولى سِنِي حياته، من خلال :

أ- التربية التي يتلقاها . **ب- الثقافة التي ينشأ عليها .**

ج- البيئة المحيطة به . **د- جميعها صحيحة .**

المحاضرة السادسة : جوانب وصور من أخلاق النبي الكريم ﷺ

مدح الله سبحانه نبيه الكريم محمداً ﷺ في أخلاقه عامة فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: ٤)، كما مدح جوانب خاصة من أخلاقه ﷺ، فقال: {لقد جَاءَكُمْ رَسُولٌ من أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رؤوف رَحِيمٌ} (التوبة: ١٢٨)، وأخبر سبحانه عن حبه ﷺ للمؤمنين، وحرصه على ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، حتى كان أحرص منهم على أنفسهم، فقال تعالى: {النبي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ من أَنْفُسِهِمْ} (الأحزاب: ٦).

زكَّى الله تعالى لسانه فقال: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى} (النَّجم: ٣)، وزكَّى صدره الشريف، فقال: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} (الانشراح: ١)، وزكَّى هديه ومنهجه القويم فقال: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الشُّورى: ٥٢). واختاره أسوةً ومثلاً أعلى للبشرية، فقال تعالى: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} (الأحزاب:٢١)، وجعل اتباع هديه ﷺ علامة على صدق محبته تعالى فقال عزَّ من قائل: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رحيم} (آل عمران: ٣١)؛ لأنه ﷺ كان تجسيداً عملياً لما جاء به القرآن الكريم من أوامر ونواهي، فكان يرضى لما يُرضي الله، ويَسخط لما يُسخطه، ومن ثَمَّ قالت أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (إن خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كان الْقُرْآنَ). وكان خُلُقُهُ الممدوحُ بالعظمةِ واتِّباعِ القرآنِ، القرآنُ مشتملٌ على الأمرِ باتباعهِ ﷺ فيما جاء من كتابٍ أو سُنَّةٍ". وفيما يلي نستعرض جوانب وصوراً من أخلاقه ﷺ:

١- عبادة النبي ﷺ :

كان النبي ﷺ أتقى الناس لربه، وأكثرهم ذكراً وشكراً له. تقول عائشة رضي الله عنها: كان نبي الله ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: لِمَ تصنعُ هذا يا رسولَ الله وقد غَفَر اللهُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ : (أفلا أكون عبداً شكوراً).

يصف لنا حُذيفة بن اليَمَان ﷺ صورة لقيامه ذات ليلة، فيقول: لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعد العَتَمَةِ (أي صلاة العشاء) فقلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي أَنْ أَتَعَبَّدَ بِعِبَادَتِكَ. فَذَهَبَ وَذَهَبْتُ مَعَهُ ... ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَأَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ قَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ لاَ يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ سَأَلَ، وَلاَ آيَةِ خَوْفٍ إِلاَّ اسْتَعَاذَ، وَلاَ مَثَلٍ إِلاَّ فَكَّرَ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمُ وَيُرَدِّدُ فِيهِ شَفَتَيْهِ حَتَّى أَظُنَّ أَنَّهُ يَقُولُ وَبِحَمْدِهِ، فَمَكَثَ فِي رُكُوعِهِ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ كَبَّرَ فَسَجَدَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى وَيُرَدِّدُ شَفَتَيْهِ فَأَظُنُّ أَنَّهُ يَقُولُ وَبِحَمْدِهِ، فَمَكَثَ فِي سُجُودِهِ قَرِيباً مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ نَهَضَ حِينَ فَرَغَ مِنْ سَجْدَتَيْهِ فَقَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ثُمَّ اسْتَفْتَحَ آلَ عِمْرَانَ لاَ يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ سَأَلَ، وَلاَ آيَةِ خَوْفٍ إِلاَّ اسْتَعَاذَ، وَلاَ مَثَلٍ إِلاَّ فَكَّرَ حَتَّى خَتَمَهَا. ثُمَّ فَعَلَ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ كَفِعْلِهِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَمِعْتُ النِّدَاءَ بِالْفَجْرِ. قَالَ حُذَيْفَةُ: فَمَا تَعَبَّدْتُ عِبَادَةً كَانَتْ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْهَا).

وكان من شدة خشيته لله يُسمعُ لجوفه وهو يصلي (أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء)، حتى لكأنه يعاين الحساب.

وكان يكثر من الصيام، تقول عائشة رضي الله عنها: (كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، ولم أره صائماً في شهرٍ قط أكثر منه في شعبان، كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلاً).

وكان يُكثر من الصدقة فلا يكاد يُمسك على شيء، يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (كان رسول اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ الناس، وكان أَجْوَدُ ما يَكُونُ في رَمَضَانَ حين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكان يَلْقَاهُ في كل لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ).

وكان مع هذا كله ينظر إلى عبادته وشكره لله، فيرى نفسه مقصراً في جنب الله، فيزداد ذكراً وشكراً وعبادة لله. وكان يقول في بيان ذلك: (إنه لَيُغَانُ على قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ في الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ). والغين هو الغشاوة الخفيفة أو الفتور. أي أنه ﷺ لكمال عبوديته لله، ولكمال محبته وشكره له سبحانه، كان يرى من نفسه التقصير بمجرد الغفلة أو الفتور عن ذكر الله لأي أمرٍ كان، وكان يَعُدُّ ذلك ذنباً فيستغفر الله منه؛ لأنه –بأبي هو وأمي- كان في حالة ترقٍ دائمٍ من كمالٍ إلى كمال. وكلما ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها، فاستغفر من الحالة السابقة.

٢- خلقه ﷺ في الدعوة إلى الله:

كانت دعوة النبي ﷺ لجميع الخلق، وكان همه إدخال الهداية إلى قلوبهم، وكان يحزن أشد الحزن لإعراضهم عن الهداية والإيمان، حتى عاتبه الله على ذلك بقوله: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً} (الكهف: ٦). أي؛ لعلك يا محمدُ مُهلكٌ نفسكَ وقاتلُها حسرةً وأسفاً على إعراضهم وعدم استجابتهم لدعوتك؟ أي؛ لا ينبغي أن يَعْظُمْ حزنُك وأسفُك بسبب كفرهم.

كان ﷺ يُعلم الجاهل والمخطئ والمسيء بأرقِّ أسلوب، وبألطف عبارة. من ذلك:

ما رواه أبو أُمامة ﷺ قال: إن فتىً شاباً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا!. فأقبل القوم عليه فزجروه. وقالوا: مه، مه. فقال له: (ادنه). فدنا منه قريباً. قال: (أتحبّه لأمّك؟). قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم). قال: (أفتحبه لابنتك؟). قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لبناتهم). قال: (أفتحبه لأختك؟). قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لأخواتهم). قال: (أفتحبه لعمتك؟). قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لعماتهم). قال: (أفتحبه لخالتك؟). قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لخالاتهم). قال: فوضع يده عليه. وقال: (اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه). فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء) فلم يُعَنِّفْ ﷺ على الشاب، ولا أغلظ له القول، بل رَفَقَ به، وعلمه من خلال دغدغة عواطفه، وتحريك الغيرة فيه، فإذا به يستجيب. وعن أنس بن مالك ﷺقال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابيٌّ فقام يبول في المسجد! فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مه، مه. فقال رسول الله ﷺ : لا تُزْرِموه، دعوه. فتركوه حتى بال. ثم إن رسول الله ﷺ دعاه، فقال له: (إِنَّ هذه الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ من هذا الْبَوْلِ ولا الْقَذَرِ، إنما هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عز وجل وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ). قال: فَأَمَرَ رَجُلًا من الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ من مَاءٍ فَشَنَّهُ عليه". ومعنى لا تزرموه: لا تقطعوه، ودعوه حتى يُكمل. ثم أقبل عليه النبي ﷺ يُعَلِّمُه برفق. ولو عنَّف عليه في الإنكار، لربما كان سبباً في صَدِّه عن دين الله، وحرمانه من الهداية.

وفي هذا درس بليغ لكل داعية إلى الله، بأن يرفق بالناس، ويعاملهم باللين، وبأن يفترض فيهم الجهل بالدين، وليس الاستخفاف أو العناد، فيبادر إلى تعليمهم.

٣- رحمة النبي ﷺ :

كان الرسول الله ﷺرحمةً مهداةً من الله للناس كافة، وذلك بما حمله من هدايةٍ وتشريعٍ، وإرساءٍ لقيم الحق والعدل. قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} (الانبياء:١٠٧). بل جعل الله وجوده ﷺ بين ظهراني قومه أماناً لهم من الهلاك في الدنيا على الرغم من بقائهم على شركهم، وما ذلك إلا لكرامته على الله تعالى، قال تعالى: {وَمَا كان الله ليُعذِبَهم وأنت فيهم} (الأنفال:٣٣). كما أنه ﷺ سيكون رحمة للبشرية جميعها في الحياة الآخرة، حيث ستشملهم شفاعته الكبرى لإراحتهم من هول الموقف، وبدء الحساب.

وناله ذات مرةٍ أذىً شديدٌ من قومه، فطلب منه بعض أصحابه أن يدعو عليهم، فأجاب بقوله: (إني لم أبعث لعاناً، وإنما بُعثتُ رحمة)، وفي غزوة أُحدٍ كسروا رباعيته، وشجوا رأسه، وسال الدم على وجهه الشريف،

ومع ذلك لم يدعُ عليهم، بل كان يمسح الدم عن وجهه الشريف، ويقول لأصحابه: إن نبياً من الأنبياء تعرض لمثل هذا، فلم يقل سوى: (رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

وقد بلغ من رحمته ﷺ بأمته أن سأل الله أن يجعل سَبَّهُ ولعنهُ لِمَنْ أغضبه رحمةً، فقال: اللهم إنما أنا بَشَرٌ فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أو سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ له زَكَاةً وَأَجْراً).

ومن صور رحمته بأمته أنه ﷺ أمَر مَنْ يؤم الناس في الصلاة بأن يُخفف. جاءه رجلٌ ذات مرة، فقال: إني لأتأخرُ عن صلاة الصبح مِن أجل فلانٍ مما يُطيل بنا. قال أبو مسعود (راوي الحديث): ما رَأَيْتُهُ غَضِبَ في مَوْضِعٍ كان أَشَدَّ غَضَباً منه يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قال: (يا أَيُّهَا الناس إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ الناس فَلْيَتَجَوَّزْ، فإن خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ).

ومن رحمته بأمته أن دعا على ولاة الأمور الذين لا يرفقون برعاياهم، فقال ﷺ: (اللهم من وليَ من أمرِ أمتي شيئاً، فشقَّ عليهم، فاشقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً، فرفق بهم، فارفق به).

ومن صور رحمته ﷺ بكاؤه على ولده إبراهيم عند مماته في مجتمع كان يعيب مثل هذا الأمر، ويعتبره ضعفاً في الرجل. فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظِئْراً لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ: (يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ)، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرضى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ). فبين ﷺ أن هذا البكاء رحمة، ومما تقتضيه الفطرة السليمة، وأن الممنوع إنما هو السخط من قضاء الله وقدره، وعدم الرضا بأمره!.

٤- صِدْقُ النبي ﷺ :

كان الصّدق سِمةَ أقوال النبي ﷺ وأفعاله. قال الله تعالى فيه: {وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (الزمر: ٣٣). والذي جاء بالقرآن وآمن به هو الرسول ﷺ وأتباعه الذين آمنوا بما جاءهم به. ويقول النبي ﷺ مخاطباً بعض أصحابه: (قد عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبَرُّكُمْ).

يقول الماوردي رحمه الله وهو يسرد بعض خصال النبي ﷺ: "الخصلة السادسة: أنه محفوظ اللسان من تحريفٍ في قولٍ، واسترسالٍ في خبرٍ يكونُ إلى الكذبِ منسوباً، وللصدقِ مُجانِباً. فإنه لم يزلْ مشهوراً بالصدْقِ في خبره فاشياً وكثيراً، حتى صار بالصدق مرموقاً، وبالأمانة مرسوماً. وكانت قريشٌ بأسرها تَتَيَقنُ صِدْقَهُ قبلَ الإسلامِ، فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه، فمنهم من كذَّبه حسداً، ومنهم من كذَّبه عناداً، ومنهم من كذَّبه استبعاداً أن يكون نبياً أو رسولاً. ولو حفِظوا عليه كِذْبةً نادرةً في غير الرسالةِ لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة. ومَنْ لَزِمَ الصِدْقَ في صِغَرِه، كان له في الكِبَرِ ألْزَمَ. ومَنْ عَصِمَ منه في حَقِ نفسِه، كان في حقوقِ الله تعالى أعْصَمَ. وحسْبُكَ بهذا دفعاً لجاحدٍ، ورداً لمعاندٍ".

نعم؛ لقد لقبه قومه بالصادق الأمين قبل إعلان دعوته، وقبل إعلامهم بأن الله قد أرسله إليهم. فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت الآية {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} (الشعراء: ٢١٤)، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: (يا بني فهر، يا بني عدي) لبطون قريش، حتى اجتمعوا. فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم كنتم مُصَدِّقي؟) قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: (فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} (المسد: ١). فانتزع ﷺ منهم الاعتراف بصدقه، وجعلهم يُقِرُّون به على رؤوس الأشهاد، وأقامَ الحُجة عليهم، ثم أخبرهم بأنه رسولُ الله إليهم، فأبهتهم بذلك! وهذا من عظيم فطنته.

ويقول حَبْر اليهود عبد الله بن سلام ﷺ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ. فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ). وهذه شهادة حَبْر يهودي، وهم مَنْ هم في تعصبهم ليهوديتهم، واحتقارهم لغيرهم.

٥- شجاعة النبي ﷺ :

كان النبي ﷺ أشجع الناس، ولعل أبرز ما تتجسد فيه شجاعته ﷺ هو مواجهته لقومه وللمشركين من حوله بمبادئ دينه الحنيف، والتي تتعارض مع ما ألفوه وتوارثوه عن آبائهم وأسلافهم. وقد كان ﷺ يعلم علم اليقين أنهم سيسعون لإيذائه بكل أصناف الأذى، وسيعلنون عليه حرباً مفتوحة، يجندون لها كل طاقاتهم، ولكنه لم يأبه بذلك، وصدع بالحق امتثالاً لأمر الله: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} (الحجر: ٩٤)، فجهر بدعوته، ولم يداهن أهل الباطل قط. قال تعالى: {وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} (القلم: ٩).

يقول عليٌّ ﷺ في وصف شجاعة النبي ﷺ: "كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدنى إِلى القوم مِنْهُ". ويقول أيضًا: "لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ، وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْساً".

ويصف العباس ﷺ مشهد يوم حنين، وحال رسول الله ﷺ فيه، فيقول: "شَهِدْتُ مع رسول اللَّهِ ﷺ يوم حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أنا وأبو سُفْيَانَ بن الْحَارِثِ بن عبد الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فلم نُفَارِقْهُ. وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ على بَغْلَةٍ له بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا له فَرْوَةُ بن نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فلما الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رسول اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ.

ويصف العباس ﷺ مشهد يوم حنين، وحال رسول الله ﷺ فيه، فيقول: "شَهِدْتُ مع رسول اللَّهِ ﷺيوم حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أنا وأبو سُفْيَانَ بن الْحَارِثِ بن عبد الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فلم نُفَارِقْهُ. وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ على بَغْلَةٍ له بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا له فَرْوَةُ بن نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فلما الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رسول اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ. قال عَبَّاسٌ: وأنا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رسول اللَّهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وأبو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رسول اللَّهِ ﷺ. فقال رسول اللَّهِ ﷺ: (أَيْ عَبَّاسُ؛ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ). فقال عَبَّاسٌ -وكان رَجُلًا صَيِّتًا- فقلت بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ. قال: فَوَ اللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حين سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ على أَوْلَادِهَا. فَقَالُوا: يا لَبَّيْكَ، يا لَبَّيْكَ. قال: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ". وفي بعض الروايات أن رجلاً قال لِلْبَرَاءِ بن عَازِبٍ ﷺ: أَفَرَرْتُمْ عن رسول اللَّهِ ﷺ يوم حُنَيْنٍ؟ قال: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ لم يَفِرَّ. إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْماً رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عليهم فَانْهَزَمُوا، فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ على الْغَنَائِمِ، وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ. فَأَمَّا رسول اللَّهِ ﷺ فلم يَفِرَّ. فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لعلى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يقول: (أنا النبي لَا كَذِبْ، أنا ابن عبد الْمُطَّلِبْ).

أي أنه ﷺ لشجاعته، وعظيم ثقته بالله تعالى، كان يناديهم بأعلى صوته في اللحظة الحاسمة من المعركة، متحدياً لهم، أنا النبي حقاً، لا أفِرُّ، ولا أزول من مكاني. يُعَرِّفهم بنفسه بأنه ابن عبد المطلب لأن شهرته بذلك كانت أكثر.

ومما روي من صور شجاعته ﷺ سبقه لكشف الأخبار عند الفزع. يقول أنس بن مالك ﷺ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺأَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ. وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاجِعاً وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: (لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا) قَالَ: (وَجَدْنَاهُ بَحْراً. أَوْ: إِنَّهُ لَبَحْرٌ) قال: وكان فَرَساً يُبَطَّأُ. أي أن الفرس الذي ركبه النبي ﷺ كان معروفاً ببطئه، إلا أن النبي ﷺ يخبر عنه بأنه وجده سريعاً في هذه المرة،

ولذلك فقد سبق ﷺ الجميع إلى مصدر الصوت، وأنه ليس هناك ما يخيف. قال النووي رحمه الله معلقاً على الحديث: "وفيه فوائدٌ، منها: بيانُ شجاعته ﷺ مِنْ شدةِ عجلته في الخروج إلى العدو قبْل الناس كلهم، بحيث كَشَفَ الحالَ، ورجعَ قبل وصول الناس. وفيه بيانُ عظيم بركته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعاً بعد أنْ كان يَبْطأ. وهو معنى قوله ﷺ : وجدناه بحراً. أي؛ واسع الجري".

٦- عفو النبي ﷺ :

كان العفو عند المقدرة شيمة النبي ﷺ مع الناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، مع الصديق والعدو، ومن أروع الصور التي تجسد فيها عفوه ﷺ ما كان غداة فتح مكة مع أهلها، فلقد آذوه، وآذوا أصحابه أشد الإيذاء، حتى قُتل بعضهم تحت التعذيب، وطردوا من موطنهم، واستولى المشركون على ديارهم وأموالهم، ومع كل ذلك فإنه ﷺ حين أمكنه الله من رقابهم، عفا عنهم، ولم يوجه لهم كلمة فيها تعنيف أو تجريح!. وقف فيهم خطيباً وقال: (يا معشر قريش؛ ما تقولون؟) قالوا: نقول: ابنُ أخٍ، وابنُ عم، رحيمٌ كريمٌ. ثم أعاد عليهم القول. فقالوا مثل ذلك. قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام: {لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ} (يوسف: ٩٢) فخرجوا، فبايعوه على الإسلام.

ومن صور عفوه ﷺ ما رواه جَابِرَ أَنَّهُ غَزَا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ. فلما قَفَلَ رسول اللَّهِ ﷺ قَفَلَ معه، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ في وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رسول اللَّهِ ﷺ، وَتَفَرَّقَ الناس يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ. فَنَزَلَ رسول اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ، وَعَلَّقَ بها سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً. فإذا رسول اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا، وإذا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ. فقال: (إِنَّ هذا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وأنا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وهو في يَدِهِ صَلْتًا، فقال: من يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فقلت: الله. فَهَا هو ذَا جَالِسٌ) ثُمَّ لم يُعَاقِبْهُ رسول اللَّهِ ﷺ، وَجَلَسَ".

ومن صور عفوه ﷺ ما كان يوم العقبة. وما لاقاه من مشركي قريس من الصدِّ والإيذاء، فأرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال عليهما السلام، وقال له ملك الجبال: إن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الْأَخْشَبَيْنِ (جبلا أبي قبيس والأحمر) لفعلت، وأهلكتهم عن آخرهم. ولكنه ﷺ أبى وقال: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله من أَصْلَابِهِمْ من يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً).

٧- تواضع النبي ﷺ :

تحفل سيرة النبي ﷺ بأروع صور التواضع، وكلها تدل على أنه كان طبعاً له وسجيةً فيه، ولم يكن يتكَلَّفُه. فقد كان ﷺ يكره أن يتميز عن أصحابه بهيئةٍ أو لباسٍ، أو مكان جلوسٍ أو غير ذلك مما يحب أن يتميز به وجهاء الدنيا، وكان إذا دخل الغريب إلى مجلسه سأل أيُّكم محمد؟ لا يعرفه، مع وجوده بين ظهرانيهم.

وكان ينهى عن مدحه، وإلقاء ألقاب التفخيم عليه، ويقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله).

وكان يُحذر من الكِبْر، ويقول: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ من كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ). قال رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قال: (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ الناس). وبطر الحق: يعني دفعه وإنكاره ترفعاً. وغمط الناس: يعني احتقارهم. فالكِبر قد يكون في صورة الترفع عن الحق وعدم الاستسلام له، أو في صورة احتقار الناس.

ولقد بلغ من تواضعه ﷺ، أن الأَمَةَ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ، كانت تَأْخُذُ بِيَدِه فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ، فلا يرجع حتى يقضي حاجتها.

وبلغ من رغبته ﷺ في جبر الخواطر أن قال: (لو دُعيتُ إلى ذِراعٍ أو كُراعٍ لَأجَبْتُ، ولو أُهديَ إلي ذراعٌ أو كُراعٌ لَقَبِلْتُ) والكُراع: ما استدق من ساق الغنم، وهو كناية عن الشيء الحقير. قال ابن حجر: "الحديثُ دليلٌ على حُسن خُلقه ﷺ، وتواضعه وجبره لقلوب الناس".

ودُعي ذات مرة إلى خبز شعير، وإهالة سنخة، فأجاب. والإهالة السنخة: تعني الدهن الجامد المتغير الريح من طوال المكث. ودعاه ذات مرة خَيَّاطٌ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ فأجاب. قال أنس: فَذَهَبْتُ مع النبي ﷺ، فَقَرَّبَ خُبْزَ شَعِيرٍ، وَمَرَقًا فيه دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ. فرأيت النبي ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ من حَوَالَيْ القَصْعَةِ. فلم أزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ بَعْدَ يَوْمِئِذٍ". وكان يجلس على الأرض، ويأكل عليها ويحلب الشاة. ويَعُودُ الْمَرِيضَ، وَيُشَيِّعُ الْجِنَازَةَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَكَانَ يَوْمَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وكذا في خَيْبَرَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِرَسَنٍ مِنْ لِيفٍ، وَتَحْتَهُ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ.

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) يقول النبي ﷺ : (لا تطروني كما أطرت . . . . :

أ- النصارى ابن مريم . ب- اليهود ابن عمران .

ج- الفرس كسرى . د- الروم هرقل .

(٢) في استجابة النبي ﷺ الدعوة إلى خبز الشعير والإهالة السنخة دليل على:

أ- حيائه . ب- تواضعه .

ج- رحمته . د- جميعها صحيحة .

٨- زهد النبي ﷺ :

كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة. خَيَّرَهُ الله تعالى بين أن يكون ملكاً نبياً، أو يكون عبداً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً. كان ينام على الفراش تارةً، وعلى النطع (الجلد) تارةً، وعلى الحصير تارةً، وعلى الأرض تارةً، وعلى السرير تارةً بين رماله، وتارةً على كساء أسود. وكان فراشه أدماً، حشوه ليف، وكان له مِسحٌ (لباس من شعر أو ثوب خشن) ينام عليه، يثنى بثنيتين، وثني له يوماً أربع ثنيات، فنهاهم عن ذلك وقال: (ردوه إلى حاله الأول، فإنه منعني صلاتي الليلة).

وروى أنس بن مالك ﷺ قال: "دخل عُمَر وناس من الصحابة، فانحرف النبي ﷺ، فرأى عُمَر أثر الشريط في جنبه، فبكى. فقال النبي ﷺ: (ما يُبكيك يا عمر؟ قال: ومالي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا، وأنت على الحال الذي أرى! فقال يا عمر: (أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة) قال : بلى. قال: (هو كذلك).

وكان من زهده ﷺ أن النار لم تكن توقد في بيته في الشهر والشهرين مرة. فعن عُرْوَةَ عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قالت لِعُرْوَةَ: "ابن أُخْتِي: إن كنا لَنَنْظُرُ إلى الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ، وما أُوقِدَتْ في أَبْيَاتِ رسول اللَّهِ ﷺ نَارٌ! فقلت: يا خَالَةُ: ما كان يُعِيشُكُمْ؟ قالت: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ. إلا أَنَّهُ قد كان لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ من الْأَنْصَارِ، كانت لهم مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ من أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينا).

وعن ابن عباس ﷺ قال: "كان رسول اللَّهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا، وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عَشَاءً، وكان أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ"، وليس هذا فحسب؛ بل تقول السيدة عائشة: "ما شَبِعَ رسول اللَّهِ ﷺ من خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حتى قُبِضَ".

وليس هذا عن قلة، أو لعدم توافر المال بين يديه! بل لسماحة نفسه، وإعراضه عن الدنيا، وإيثاره لغيره على نفسه؛ وإلا فقد عُرِض عليه أن يكون مَلِكاً نبياً كما أسلفنا.

وكان ﷺ يشبه إقامته في هذه الدنيا بإقامة المسافر في بلدة نزل بها لبرهة من الزمن، فماذا عساه أن يفعل من أجل إقامته لتلك البرهة من الزمن. يقول عبد اللَّهِ بن مسعود: "نَامَ رسول اللَّهِ ﷺ على حَصِيرٍ فَقَامَ وقد أَثَّرَ في جَنْبِهِ. فَقُلْنَا يا رَسُولَ اللَّهِ: لو اتَّخَذْنَا لك وِطَاءً. فقال: (ما لي وما لِلدُّنْيَا، ما أنا في الدُّنْيَا إلا كَرَاكِبٍ استظل تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا).

٩- صبر النبي ﷺ :

أخبر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ وأتباعه من المؤمنين بأنهم سيلقون من أعدائهم صنوف الأذى، وأن عليهم مواجهة ذلك بالصبر وبتقوى الله، فهما سلاح المؤمن في مواجهته للشدائد. قال تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (آل عمران: ١٨٦) وفي آية أخرى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} (آل عمران: ١٢٠).

وبدهي أن يكون حظ النبي ﷺ من الأذى أكبر من حظ أتباعه، وأن تكون حاجته للصبر أشد وأعظم من حاجتهم، ومن ثَمَّ حثَّه الله على مزيد من الصبر، وأخبره بأنه ليس بدعاً من الرسل في ذلك، فقد أوذي مَنْ كان قبله مِنَ الرسل عليهم السلام في سبيل دعوتهم، وعانوا ما عانوا، وكان سلاحهم في مواجهة ذلك الصبر

والعزيمة والثبات على الحق، قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} (الْأَحْقَاف: ٣٥). وقد امتثل نبينا ﷺ أمر ربه، فكان المثل الأعلى في صبره ومعاناته وتحمله في سبيل الدعوة حتى لقي ربه!

وفيما يلي صورٌ من تلك المعاناة على يد المشركين والمنافقين والأعراب:

١- سألت أم المؤمنين عائشة النَّبي ﷺ : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحدٍ؟ قال: (لقد لَقِيتُ من قومِك ما لَقِيتُ، وكانَ أشدَّ ما لَقِيتُ منهم يوم العَقَبَةِ، إذْ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلالٍ، فلم يُجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستَفِقْ إلَّا وأنا بقَرْنِ الثَّعالب فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظَلَّتني، فنظرْتُ فإذا فيها جبريلُ، فناداني فقال: إنَّ اللَّه قد سَمِع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعثَ إليك مَلَكَ الجبال لتأمُرَهُ بما شئتَ فيهم، فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئتَ أن أُطبقَ عليهم الأخشَبين -جبلا مكة: أبو قبيس والأحمر- ؟ فقال النبيُّ ﷺ : بل أرجو أن يُخرجَ اللَّهُ من أصلابهمْ من يعبدُ اللَّهَ وحدهُ، لا يُشركُ به شيئاً). والمقصود بيوم العَقَبَة، عَقَبَةٌ عند الطائف –وليس عَقَبَةَ مِنَى المتبادرة إلى الذهن- بدليل قوله ﷺ: (إذْ عرضتُ نفسي على ابن عبدِ يا ليل) وهم من أكبر أهل الطائف من ثقيف، طلب منهم ﷺ النصر والإعانة على إقامة الدين، فلم يستجيبوا.

ثم اتجه ﷺ صوب مكة، فلما كان بقرن الثعالب –ميقات أهل نجد- إذا بجبريل يناديه كما تقدم في الحديث آنف الذكر.

٢- لقي النبي ﷺ في المدينة المنورة من المنافقين أذىً كثيراً، حتى إنهم طعنوا في عرضه، وتولى كِبْر الفرية، الأفَّاكُ الأثيم، رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول، فتكلم في زوج النبي ﷺ السيدة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقام رسولُ اللَّه ﷺ وخطب في الناس قائلاً: (مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أذَاهُ في أهلي، فو اللَّه ما علمتُ على أهلي إلَّا خيراً، وقد ذَكَروا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عليه إلَّا خيراً، وما كانَ يَدْخُلُ على أهلي إلَّا معي) فهبَّ بعض أخيار الصحابة –سعد بن معاذ وأسيد بن حضير- وقالوا: نحن نعذرك ونكفيك شره ونقتله، ولكن النبي ﷺ تحمَّل أذاه، وتجاوز عنه، تضحيةً في سبيل الدعوة إلى الله، وتأليفاً للقلوب، وحتى لا يُقال: إن محمداً ﷺ يقتل أصحابه. وأنزل الله في براءة زوجه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة.

٣- وقع شجارٌ ذات مرةٍ بين مهاجري وأنصاري، ونادى الأنصاري يا للأنصار، ونادى المهاجري يا للمهاجرين، واجتمعوا للاقتتال، سمع بذلك الرسول ﷺ فتدخل وأنهى الشجار، وانتهت المشكلة، إلَّا أنَّ رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول سمع بالخبر، فاستغله للنيل من الرسول ﷺ والمهاجرين! فقال: أَوَ قد فَعَلُوا! والله لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ، وقال كلاماً بذيئاً فقال عمرُ بن الخطاب ﷺ: دعني يا رسولَ اللَّه أَضرب عنُقَ هذا المُنافق. قال: (دعهُ لا يَتَحَدَّثُ الناس أنَّ محمداً يَقْتُلُ أصحابه).

غير أن هذا الصبر كان إذا انتهكت حقوقه ﷺ، وأما إذا انتهكت حدود الله، فلن تجد إلا الحزم والشدة (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ) (الفتح:٢٩).

١٠- مِزاحُ النبي ﷺ :

كان من هديه ﷺ أن يمزح مع أصحابه لمؤانستهم، ولإدخال السرور على قلوبهم، وليعلمهم أن في ديننا فسحة. فالنفوس تَمَلُّ وتَسْأَمُ، وتحتاج إلى الترويح والترفيه؛ إلا أنه ﷺ "لم يكن يقول في مِزاحه إلا حقاً". ولم يكن يكثر منه؛ لأنه كثرته تُقسي القلب، وتُشغل عن ذكر الله، وعن التفكير في مهمات الدين، وقد تنتهي إلى منازعاتٍ وأحقاد، وتُسقط المهابة والوقار، بل كان يمزحُ على ندرةٍ ولمصلحةٍ، أو لتطييبِ نفس المخاطَب ومؤانسته. وفيما يلي صورٌ منها :

١- وردَ أن امرأةً عجوزاً قالت: "يا رسول الله؛ ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال لها النبي ﷺ: (يا أُم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز) فَولَّتْ تبكي. فقال: (أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز. إن الله تعالى يقول: {إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً} (الواقعة: ٣٥–٣٧).

٢- وعن أنس ﷺ أنَّ رجلاً أتى رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله احمِلْنا على بعير. فقال: (أَحْمِلُكُمْ على وَلَدِ الناقةِ). قال: وما نَصْنَع بولدِ الناقةِ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: (هل تَلِدُ الإبلَ إلا النُّوقُ؟). أي أن ذهن السائل انصرف لدى سماعه (ولد الناقة) إلى أن الرسول سيعطيه بعيراً صغيراً لا يصلح للركوب، فاستغرب قائلاً: وماذا سأصنع بالصغير؟ فنبهه الرسول ﷺ إلى أن الكبير أيضاً ولد الناقة، وإلا فمن أين أتى؟.

٣- عن أنس أن رجلاً من أهل البادية يقال له: زاهر بن حرام ،كان يُهدي إلى النبي ﷺ الهدية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج. فقال رسول الله ﷺ : (إن زاهراً بادينا، ونحن حاضروه). قال: فأتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني. من هذا؟ فالتفت إليه، فلما عرف أنه النبي ﷺ جعل يلزق ظهره بصدره. فقال رسول الله ﷺ : (من يشتري هذا العبد؟) فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسداً. قال: (لكنك عند الله لست بكاسد). أو قال ﷺ : (بل أنت عند الله غال).

١١- حياؤه ﷺ :

يقول النبي ﷺ : (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقاً، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ). أي؛ أن لكل دين طبعاً وسجيةً، وطبع هذا الدين وسجيته التي بها قِوامُه وجَمالُه هو الحياء.

وقد وُصِفَ ﷺ بأنه كان شديد الحياء، حتى قيل فيه كان "أشدَّ حياءً من العَذْرَاءِ في خِدْرِها، وكان إذا كَرِهَ شيئاً عُرِفَ في وجهِه". والخِدر: الستر أو الخلوة. وحياء العذراء في الخلوة يشتد أكثر مما لو كانت في غير خلوة، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها، وكان ﷺ لا يواجه أحداً أو يصارحه بما يكرهه منه لشدة حيائه، بل كان يتغير وجهه، فيفهم أصحابه كراهيته لذلك الأمر.

ولم يكن ﷺ يوجه الكلام لأحدٍ بشكل مباشر، أو يسميه باسمه إذا بلغه عنه ما يكرهه، بل يُبهم ويُعمم، فيقول: ما بال أقوامٍ يصنعون كذا وكذا. لئلا يفضحه أو يجرح مشاعره.

روى أنس ﷺ أنه: لما تَزوجَ الرسولُ ﷺ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ، دعا القومَ فَطَعِموا، ثُمَّ جَلَسوا يَتَحَدَّثُونَ، وإذا هو كأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ للقيامِ، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قامَ؛ فلما قامَ، قامَ مَنْ قامَ، وقعَدَ ثلاثَةُ نَفَرٍ، فجاءَ النَّبِيُّ ﷺ ، لِيَدْخُلَ، فإذا القومُ جلوسٌ؛ ثُمَّ إنَّهُم قامُوا، فانطلقتُ فجئْتُ فأخبرْتُ النبي ﷺ أنَّهُم قد انطلقُوا؛ فَجاء حتَّى دخلَ، فذهبتُ أدخُلُ، فألقى الحجاب بيني وبينه؛ فأنزل الله قوله تعالى: {يا أيها الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ} (الأحزاب: ٥٣).

غير أن حياءه ﷺ لم يكن يمنعه من قول الحق والغضب له؛ لأن الحياء الذي ينشأ عنه الإخلال بحقوق الله أو العباد ليس بحياء في الحقيقة، بل هو عجز ومهانة.

١٢- عدل النبي ﷺ :

العدل هو المساواة في المكافأة في خيرٍ أو شرٍ. والإحسانُ مقابلةُ الخيرِ بأكثر منه، والشرِ بتركه أو بأقل منه.

أو بتعبير آخر: العدلُ هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له. والإحسانُ أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له. فالإحسان فوق العدل. والعدل واجب، والإحسان مندوب.

وكان نبينا ﷺ المثل الكامل في الأمرين معاً. العدل فيما يتعلق بإنصاف غيره من نفسه، أو بإنصاف بعضهم من بعض، والإحسان فيما يتعلق بالانتصاف لنفسه.

روى أبو سعيدٍ الخدْري ﷺ قال: بينا نحن عندَ رسول اللَّه ﷺ وهو يَقْسِمُ قَسْماً، أتاهُ ذو الخويْصِرَةِ –وهو رجُلٌ من بني تميم- فقال: يا رسول اللَّه اعدِلْ. فقال: (ويحك ومَنْ يَعْدِلُ إذا لم أعدلْ. لقد خِبْتَ وَخَسِرْتَ إنْ لم أكُنْ أعدلُ). فقال عُمر ﷺ : يا رسولَ اللَّه ائذن لي فيه أضربْ عُنُقَهُ. فقال رسولُ اللَّه ﷺ : (دَعهُ فإنَّ له أصحاباً يَحْقِرُ أحدكم صلاتهُ مع صلاتهمْ، وصيامَهُ مع صيامهم، يقرؤون القرآنَ لا يجوزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ من الإسلام كما يَمْرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ).

ولما سرقت المرأة المخزومية أهمَّ قريشاً شأنها، فقالوا من يُكَلِّمُ رسول اللَّه ﷺ؟ ومَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أسامةُ حِبُّ رسول اللَّه ﷺ ! فَكَلَّمَ رسولَ اللَّه ﷺ ، فقال: (أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللَّه؟!) ثُمَّ قام فَخَطَبَ قال: (يا أَيُّها الناس؛ إنما ضَلَّ من كان قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ. وأيم اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا). فلا محسوبيات ولا طبقات ولا خصوصيات أمام شرع الله، بل الكل متساوٍ.

وكان أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ –من صالحي الأنصار ونقبائهم- يُحَدِّثُ قَوْمَه ذات مرة ويُضْحِكُهُمْ بمزاحه، والنبي ﷺ معهم في المجلس، فَطَعَنَهُ النبي في خَاصِرَتِهِ بِعُودٍ. فقال: أَصْبِرْنِي (أي؛ أقدني من نفسك). فقال: (اصْطَبِرْ). قال: إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصاً، وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ. فَرَفَعَ النبي ﷺ عن قَمِيصِهِ. فَاحْتَضَنَهُ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ (أي؛ بطنه فوق مشد الإزار). قال: إنما أَرَدْتُ هذا يا رسول اللَّه".

وروي مثله يوم بدر مع سواد بن غزية حيث طعنه الرسول ﷺ في بطنه بالسهم وقال: (استو يا سواد). فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني!. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، فقال: (استقد). قال: فاعتنقه فقبل بطنه. فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله حضر ما ترى (أي؛ المعركة)، فأردت أن يكون آخر العهد بك، أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

١٣- أخلاق النبي ﷺ مع أهله :

يقول النبي ﷺ : (خيركم خيركُمْ لِأهله، وأنا خيركُمْ لأهلي). فكان خير الناس لأهله.

ذكرت السيدة عائشة رضي اللَّه عنها أنَّها كانت مَعَ النَّبي ﷺفي سَفَرٍ وهي جَاريةٌ، فقال لأصحابه: (تَقَدَّمُوا). فَتَقَدَّمُوا. ثُمَّ قال: (تَعَالِ أُسَابِقْكِ). فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ على رجلي، فلما كان بَعْدُ، خَرَجْتُ أيضاً مَعَهُ في سَفَرٍ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: (تَقَدَّمُوا). ثُمَّ قال: (تَعَالِ أُسَابِقْكِ). ونَسِيتُ الذى كان، وقد حملتُ اللَّحم، فقلت: وكيف أُسَابِقُكَ يا رسول اللَّه وأنا على هذه الحال؟ فقال: (لَتَفْعَلِنَّ). فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقني فقال: (هذه بتلك السَّبْقَةِ).

وتروي السيدة عائشة أم المؤمنين أيضاً فتقول: "واللهِ لقد رأيت رسولَ اللَّه ﷺ يقومُ على باب حُجْرَتِي، وَالْحَبَشَةُ يَلعبونَ بِحِرَابِهِمْ في مسجد رسول اللَّه ﷺ ، يَسْتُرُني بردائه لكي أنظرَ إلى لَعِبِهِمْ، ثُمَّ يَقُومُ من أجلي حتى أكُونَ أنا التي أنصَرِفُ، فاقدروا قَدْرَ الجارِيةِ الحديثة السِّنِّ حريصةً على اللَّهو).

وحين سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن ما كان النبي ﷺ يصنعُ في بيته؟ أجابت: "كان يَكُونُ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ-، فإذا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ". وهذ كله من تواضعه ﷺ، ورغبته في أن يخدم نفسه، ولا يكون عبئاً على أهله.

وكان من حبه ووفائه الشديد لزوجه خديجة رضي الله عنها يُكثر ذكرها بعد وفاتها، ويكثر من الثناء عليها، وكان يَصِل صاحباتها إكراماً لها حتى إنه كان يذبح الشاة ويفرقها بين صديقاتها. تقول السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنها "ما غِرْتُ على أَحَدٍ من نِسَاءِ النبي ﷺ ما غِرْتُ على خَدِيجَةَ، وما رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كان النبي ﷺ يُكْثِرُ

ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قلت له :كَأَنَّهُ لم يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلا خَدِيجَةُ! فيقول: (إِنَّهَا كانت، وَكَانَتْ، وكان لي منها وَلَدٌ). أي أنها كانت صالحة وعابدة وبرَّةً وتقية، ونحو ذلك.

١٤- أخلاق النبي ﷺ مع الأطفال:

كان ﷺ يمر بالصبيان فيسلم عليهم. ويسمع جواري (فتيات صغيرات) يغنين في بيته ويلعبن فلا يمنعهن. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "دخل عليَّ أبو بكرٍ وعندي جاريتانِ من جواري الأنصارِ تُغَنِّيانِ بما تقاولَتْ به الأنصارُ يوم بُعاثَ. قالت: وليستا بمُغَنِّيَتَيْن. فقال أبو بَكْرٍ: أبمزْمورِ الشيطانِ في بيتِ رسول اللّهِ ﷺ وذلك في يوم عيدٍ. فقال رسول اللّهِ ﷺ : (يا أبا بكر إنَّ لِكُلِّ قومٍ عيداً وهذا عيدُنا).

وكان من شدة شفقته على الأطفال ورحمته بهم، أنه كان وهو في الصلاة مع أصحابه يؤمهم، يسمع بكاء الصبي فيخفف من صلاته رحمةً به وبأمه، لِما يعلمه من وَجْد الأم وعطفها على ولدها. يقول ﷺ : (إني لَأَقُومُ في الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فيها فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ في صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ على أُمِّهِ).

وكان ﷺ "يَؤُمُّ الناس وَأُمَامَةُ بِنْتُ أبي الْعَاصِ -وهى ابْنَةُ زَيْنَبَ بِنْتِ النبي ﷺ - على عَاتِقِهِ، فإذا رَكَعَ وَضَعَهَا، وإذا رَفَعَ من السُّجُودِ أَعَادَهَا".

ودخل الحسن والحسين رضي الله عنهما المسجد ذات مرة، والنبي ﷺ يخطب في الناس، فنظر إليهما فإذا هما يمشيان ويعثران، فخشي أن يصيبهما الأذى من تعثرهما، فنزل إليهما، ووضعهما بين يديه على المنبر وقال: (صَدَقَ الله {إنما أموالُكُمْ وأولادُكُمْ فتْنَةٌ} نَظَرْتُ إلى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ ويَعثُرانِ فلم أصبرْ حتى قَطَعْتُ حَدِيثِي ورفعْتُهُما).

وكان ذات مرة يُقَبِّل الحسن وعنده الأقرعُ بن حابسٍ. فقال الأقرعُ: إنَّ لي عَشَرَةً من الوَلَدِ ما قَبَّلْتُ منهم أَحداً! فَنَظَرَ إليه رسول اللّه ﷺ ثُمَّ قال: (مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ). وعندما قال له أحدهم مستغرباً: "تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ! فما نُقَبِّلُهُمْ. فقال النبي ﷺ : (أَوَ أَمْلِكُ لكَ أَنْ نَزَعَ الله من قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ). فبين أن تقبيل الولد ومداعبته وإدخال السرور على قلبه مما يحبه الله. وأن أبعد الناس من الله القلب القاسي.

١٥- أخلاق النبي ﷺ مع العبيد والخدم:

كان النبي ﷺ رحيماً بالعبيد والخدم غاية الرحمة، وكان يُكرمهم غاية الإكرام، ويوصي المسلمين بهم خيراً. والمواقف والمشاهد التي تؤكد ذلك كثيرة جداً، منها:

أ- كان زيد بن حارثة ﷺ عبداً لخديجة رضي الله عنها، فأهدته للنبي ﷺ بعد زواجهما، وقَدِم والد زيدٍ يوماً إلى النبي ﷺ يطلب إعتاقه، ويبدي استعداده لشرائه بالمال. فأخبره الرسول بأنه سيناديه ويخيره، فقَبِل والده بذلك، وسُرَّ به؛ لأنه لم يكن يساوره أية شكوك بأنه سيختاره والده وأهله، فناداه الرسول وخيره بين البقاء عنده أو اللحاق بوالده. فكان جوابه: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أبداً. قال والده: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية؟ وعلى أبيك وأهل بيتك؟ قال: نعم؛ قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً. فانصرف والده بعد أن أسلم، واطمأن على وضع ابنه. وتبناه الرسول ﷺ ، فأصبح ينادى؛ زيد بن محمد، حتى نَزَلَ في الْقُرْآنِ: (ادْعُوهُمْ لِآبائهمْ هو أَقْسَطُ عند اللّه).

ب- كان أسامة بن زيد بن حارثة يُلَقَّب بحِبِّ رسول الله وابن حِبِّه. وذات مرةٍ أَمَّرَه النبي ﷺ على غزوة، فوجد بعض المسلمين في نفسه شيئاً من ذلك، ربما لصغر سنه، وربما بالنظر إلى والده وكونه مولى، فلم يعجبهم أن يؤمَّرَ على شيوخهم ووجهائهم. فسمع النبي ﷺ بذلك فقام فيهم خطيباً، وقال: (إن تَطعَنُوا في إمرَتِهِ، فقد كُنْتُمْ تَطْعَنُونَ في إِمْرَةِ أبيه من قَبْلُ، وأيم اللّهِ إن كان لَخَلِيقاً لِلْإِمْرَةِ، وَإِنْ كان لَمِنْ أَحَبِّ الناس إليَّ، وَإِنَّ هذا لَمِنْ

أَحَبِّ الناس إليَّ بَعْدَهُ). وحين أهم قريشاً أمر المخزومية التي سرقت، لم يجد من يمكن أن يشفع فيها إلا أسامة بن زيد لِما يعلمون من مكانته لدى النبي ﷺ.

ج- يقول أنس ﷺ : "خَدَمْتُ النبي ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فما قال لي أُفٍّ، ولا لِمَ صَنَعْتَ، ولا ألا صَنَعْتَ".

د - عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: "ما ضَرَبَ رسول اللَّهِ ﷺ شيئاً قَطُّ بيده، ولا امْرَأَةً، ولا خَادِماً، إلا أَنْ يُجَاهِدَ في سَبِيلِ اللَّهِ. وما نِيلَ منه شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ من صَاحِبِهِ إلا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ من مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عز وجل".

هديه ﷺ في الرفق بالحيوان:

لم يكن قلب النبي ﷺ المفعم بالرحمة ليستثني الحيوانات من تلك الرحمة، ومن ثَمَّ وجدناه يخصها بأحكام شرعية تؤصل لذلك. يقول النبي ﷺ : (إِنَّ اللَّه كَتَبَ الإحسانَ على كل شيءٍ، فإذا قَتَلْتُمْ فأحسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فأحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ). وقد قال النووي في هذا الحديث الشريف بأنه "من الأحاديث الجامعة لقواعد الاسلام".

وكان بعض الفتيان ينصبون بهائم للرمي إليها على سبيل اللعب، فرآهم بعض الصحابة، فأنكروا عليهم ذلك لما فيه من إيذاء وتعذيب يتنافى مع رحمة الإسلام. من ذلك ما ورد عن أنس بن مالك ﷺ أنه دخل دار الحكم بن أيوب فوجد قَوْماً قد نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا. فقال: "نهى رسول اللَّه ﷺ أنْ تُصْبَرَ البَهَائِمُ".

ومَرَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بفتْيَانٍ من قريشٍ قد نَصَبُوا طيراً وهُمْ يَرْمُونَهُ وقد جعلوا لصاحبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ من نَبْلِهِمْ، فلما رأوا ابن عمر تَفَرَّقُوا. فقال ابن عمر: "من فعلَ هذا؟ لعن الله من فَعَلَ هذا. إنَّ رسولَ اللَّه ﷺ لَعَنَ من اتَّخَذَ شيئاً فيه الرُّوحُ غَرَضاً".

وغفر الله لرجلٍ في كلب رآه (يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى من الْعَطَشِ فقال: لقد بَلَغَ هذا مِثْلُ الذي بَلَغَ بِي. فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ الله له، فَغَفَرَ له). قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لنا في الْبَهَائِمِ أَجْراً. قال: (في كل كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ).

وعُذِّبَتْ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حتى مَاتَتْ جُوعاً فَدَخَلَتْ فيها النَّارَ.

وختاماً: فإن هذه الصور لم تكن سوى غيض من فيض عن أخلاق الحبيب ﷺ. وإن المجلدات العظام لن تفيه حقه، ولن تحيط بخصاله ومحامده الشريفة. وإن البشر مهما قالوا، ومهما كتبوا فإنهم لن يبلغوا ثناء الله عليه بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}.

وإن من أوجب واجبات الدعاة اليوم، السعيُ إلى إحياء الأخلاق النبوية في حياة الأمة، والتحلي بها، وتربية الأجيال عليها، وخصوصاً في هذا العصر الذي تكاد تختفي فيه القيم والمثل من حياة الناس، وتحل المادة والمنفعة مكانها.

إن أعظم خدمة نقدمها لديننا الحنيف، وأيسر سبيل للدعوة إلى الله، أن نُعرِّفَ الناس بأخلاق نبينا الكريم ﷺ وشمائله، ليتخذوه أسوةً ومَثَلاً أعلى في حياتهم، قال تعالى: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} (الأحزاب:٢١).

نسأل الله أن يخلقنا بأخلاق نبيه الكريم، وأن يعيننا على نشرها والدعوة إليها.

اختر الإجابة الصحيحة لكلِ مما يأتي :

(١) : يُعَرَّفُ العدل بأنه:

أ- المساواة فى المكافأة فى خيرٍ أو شرٍ. **ب- مقابلة الخير بأكثر منه .**

ج- الإحسان . **د- مقابلة الشر بأقل منه .**

(٢) : الزوجة التي أهدت عبدها زيد بن حارثة ﷺ للنبي ﷺ بعد زواجهما هي :

أ- حفصة رضي الله عنها . **ب- خديجة رضي الله عنها .**

ج- عائشة رضي الله عنها . **د- زينب رضي الله عنها .**

المحاضرة الثامنة : أخلاق المهنة ومدى الحاجة إلى دراستها

تعريف المهنة:

المهنَة لغة: بكسر الميم وفتحها، والفتح أشهر. وتطلق على الخدمة (أو العمل)، كما تطلق على الحِذق والمهارة في الخدمة. وبهذا المعنى ورد قول النبي ﷺ: (ما على أَحَدِكُمْ إن وَجَدَ أو ما على أَحَدِكُمْ إن وَجَدْتُمْ أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ). أي سوى ثوبي العمل، إذ إن ثوب العمل يكون مبتذلاً، وليس نظيفاً بصورة كافية. وبهذا المعنى أيضاً ورد قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين سئلت عن مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ فقَالَتْ: "كَانَ يَكُونُ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ". وفي حديث آخر قالت: "كان يفعل مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَرْقَعُ دَلْوَهُ".

إلا أن المهنة خُصِّصت في الاصطلاح المعاصر: بمجموعة الأعمال والمهارات التي يقوم بها الفرد، ويربط بينها نظام معرفي أكاديمي متخصص، ونظام مهاري سلوكي.

أو: عملٌ راقٍ يجمع بين المعرفة الأكاديمية المتخصصة، والخبرة التطبيقية لها في الميدان. كالطب، والهندسة، والتدريس، والمحاسبة، والقضاء.

مرادفات لفظ المهنة: هناك ألفاظ قريبة في معناها من المهنة من مثل: الحرفة والصنعة والعمل والوظيفة .. إلا أن بينها بعض الفوارق، وفيما يلي بيانها:

الحرفة: لغةً: بالكسر؛ الصنعة، أو وسيلَةُ الكسْب التي يرتزق منها سواءٌ أكانت زراعةً أم صناعةً أم تجارةً أم غيرها. ويُقَال: حرفته أن يفعل كذا. أي؛ دأبه وديدنه. سميت حرفةً؛ لأنه مُنْحرِف إليها. والاحتراف: الاكتساب. والحرفِي: الشَّخْص الَّذِي يكسب عيشه بالعَمَلِ فِي حِرْفَة بصفة مستمرة ومنتظمة. وبهذا المعنى ورد عن أبي بكر ﷺ لما استُخْلِف، وكان تاجراً، فأراد أن يخرج لتجارته، فقال له عمر ﷺ : إلى أين؟ قال: أحترف لأهلي. قال: ومن لمصالح المسلمين وإدارة شؤونهم! ارجع ويُصرف لك من بيت المال حاجتك. فرجع، فجعلوا له ألفين. فقال: زيدوني فإن لي عيالاً، وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة. وقال أَبُو بَكْرٍ ﷺ "لقد علِمَ قومي أَنَّ حِرْفتي لم تَكُنْ تَعْجِزُ عن مَئُونَةِ أهلي، وَشُغِلْتُ بأمر المسلمينَ، فسيأْكُلُ آلُ أَبِي بَكْرٍ من هذا المالِ، ويَحتَرِفُ –أي أبو بكر- لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ". فعملُ أبي بكر ﷺ كان في التجارة، وقد سماه حرفةً. ومثل ذلك حرفة الخياطة والحلاقة والصباغة. وجرى العرف المعاصر على إطلاقها على الأعمال اليدوية التي تحتاج إلى تدريب قصير، سواءٌ أكان العمل بآلة أم بغير آلة.

الصنعة: تُطلق الصنعة في اللغة على ترتيب العمل وإحْكامه على النحو الذي تعلمه، وبما يوصله إلى المقصود منه. فالنجار صانع؛ لأنه قد سبق علمه بما يريد عمله من سرير أو باب، وكذا سبق علمه بالأسباب التي توصله إلى المقصود منه، بخلاف التاجر فإنه لا يسمى صانعاً؛ لأنه لا يعلم ما إذا كان سيصل إلى ما يريده من ربحٍ، أم لا.

العمل: يُطلق العمل لغةً على الفعل سواءٌ أكان ذهنياً أم بدنياً، وسواءٌ أكان عن قصد وفكر، أم لا، وسواءٌ أصدر من الإنسان أو الحيوان، فالثور الذي يحرث الأرض يعمل، والطائر الذي يبني لنفسه عُشاً يعمل، وسواءٌ أصدر لمرة واحدةٍ أم تكرر.

ومن هنا فإن المهنة والحرفة والصنعة وغيرها مما فيه ممارسة لفعلٍ يسمى عملاً، وكذلك يُطلق على العبادة عملاً، بدنية كانت كالصلاة والحج، أو قلبية كالتواضع والأمانة والرياء والحسد.

والخلاصة أن العمل أعم، والصنعة والمهنة والحرفة أخص. فكل صنعةٍ أو حرفةٍ أو مهنةٍ عملٌ، وليس كل عملٍ صنعةً أو حرفةً أو مهنةً.

الوظيفة: لغةً: ما يُقَدَّرُ من عملٍ أو طعامٍ أو رزقٍ في زمنٍ معيَّن. أو الخدمة المعيَّنة.

وفي الاصطلاح المعاصر: تطلق على العمل الدائم بأجر في شركة أو مؤسسة.

مكانة المهنة (أو الكسب) في الشرع:

وردت نصوصٌ كثيرة في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسول الله ﷺ، في الحث على الاحتراف والتكسب، وإعلاء شأنه، كما أفادت الأحاديث الصحيحة أن نبينا وإخوانه من الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام قد مارسوا مختلف المهن من تجارة ورعي وزراعة وخياطة وحدادة وغيرها. قال تعالى عن نبيه داود عليه السلام : {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} (الأنبياء: ٨٠) واللبوس: الدروع. وقال ﷺ : (ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)، "والحِكْمَةُ فِي تَخْصِيصِ دَاوُدَ عليه السلام بِالذِّكْرِ أَنَّ اقْتِصَارَهُ فِي أَكْلِهِ عَلَى مَا يَعْمَلُهُ بِيَدِهِ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْحَاجَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنَّمَا ابْتَغَى الْأَكْلَ مِنْ طَرِيقِ الْأَفْضَلِ، وَلِهَذَا أَوْرَدَ النَّبِيُّ ﷺ قِصَّتَهُ فِي مَقَامِ الِاحْتِجَاجِ بِهَا عَلَى مَا قَدَّمَهُ مِنْ أَنَّ خَيْرَ الْكَسْبِ عَمَلُ الْيَدِ". وقال ﷺ: (ما بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ)، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ)، وقال ﷺ أيضاً: (كان زكريا عليه السلام نجاراً).

وقال ﷺ في الحث على العمل في الزراعة: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة).

ويقول عمر رضي الله عنه : "إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا؛ سقط من عيني".

فالشريعة حثت على التكسب، ورفعت من شأنه. بل دلت مبادئ الشريعة وقواعدها على أنه واجبٌ شرعاً من حيثُ الجملة. يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله: "التكسب في الدنيا وإنْ كان معدوداً من المباحات من وجهٍ، فإنه من الواجبات من وجهٍ، وذلك أنه لما لم يكن للإنسان الاستقلالُ بالعبادة إلَّا بإزالة ضروريات حياته، فإزالتها واجبةٌ، لأن كل ما لا يتم الواجبُ إلَّا به فواجبٌ كوجوبه، وإذا لم يكن له إلى إزالة ضرورياته سبيل إلا بأخذ تعب من الناس فلا بد إذًا أن يعوضهم تعباً من عمله وإلَّا كان ظالمًا". ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "قال غيرُ واحدٍ من الفُقهاءِ من أصحابِ الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم: كأبي حامِدٍ الغزالي؛ وأبي الفرج بن الجوزي وغيرهم: أنَّ هذه الصناعاتِ فرضٌ على الكفايةِ؛ فإنَّهُ لا تَتمُّ مصلحةُ النَّاسِ إلَّا بها ... فإذا كان النَّاسُ محتاجينَ إلى فلاحة قومٍ أو نساجتهم أو بنائهم صارَ هذا العملُ واجباً يُجبرهم ولي الأمر عليه إذا امتنعوا عنه بعوض المثل".

تعريف أخلاق المهنة:

عرفها بعض المعاصرين بقوله: "مجموعة القيم والأعراف والتقاليد التي يتعارف عليها أفراد مهنة حول ما هو خير وعدل في نظرهم، وما يعتبرونه أساساً لتعاملهم وتنظيم أمورهم وسلوكهم في إطار المهنة".

الفرق بين أخلاق المهنة وأنظمتها:

تُعَرَّف أنظمة المهنة بأنها: القوانين والتشريعات التي تحدد وتنظم عمل الممارسين للمهنة. وهذا يعني:

١- أن أنظمة المهنة تهتم بما يجب فعله فحسب، وأما أخلاق المهنة فتهتم بما ينبغي فعله، وبما يُجَمِّل صورته أمام الآخرين، وبما يُكسبه ثقتهم واحترامهم.

٢- مخالف أنظمة المهنة يستحق العقوبة المنصوصة عليها في اللوائح، وأما مخالف أخلاق المهنة فيستحق اللوم والعتاب، وقد يصل إلى العقوبة.

مصادر أخلاق المهنة في الإسلام:

إن نصوص الشريعة كتاباً وسنةً هي مصدر التكاليف الشرعية عامةً لدى المسلمين بما في ذلك الجانب الأخلاقي. وأخلاق المهنة بصفتها تمثل جانباً من جوانب السلوك الأخلاقي، فإن مصدرها أيضاً هو الشرع، وقد جاءت الشريعة لتأخذ بيد الإنسان إلى الحياة الهانئة الطيبة الآمنة السعيدة، وليعيش في ظلال الإيمان الوارفة، ومن ثمَّ كانت تحثُّ على كل فضيلة، وعلى كل ما هو من مكارم الأخلاق، وعلى إتقان العمل، وعلى بذل النصيحة للآخرين والسعي فيما ينفعهم، وعلى مراقبة الله عز وجل في كل شؤون الحياة. ونصوص الشرع في ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} (النحل:٩٧)، ويقول الرسول ﷺ : (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).

وكون الشرع مصدر أخلاق المهنة لا يعني المنع من الاستفادة مما هو متوافر لدى الآخرين من أنظمة وتشريعات نافعة، فلوائح آداب المهنة التي تصدرها النقابات والتنظيمات المهنية والتي تضع القواعد المناسبة لممارسات السلوك تجاه الأطراف المختلفة (من عملاء وزملاء المهنة ورؤساء ومرؤوسين) محل قبول وترحيب ما لم تكن مصادمةً للشرع، فالحكمة ضالة المؤمن، وحيثما وجدها كان أحق بها.

مدى الحاجة إلى دراسة أخلاق المهنة:

لكل مهنة أخلاق وآداب عامة تحددها القوانين واللوائح الخاصة بها، ومن خلال مراعاتها تتم المحافظة على المهنة ومكانتها. وكثيراً ما تُجمع هذه الآداب والأخلاق في في وثيقة واحدة، يُطلق عليها أخلاقيات المهنة، أو ميثاق الشرف المهني.

ومن المعلوم أن مجموع المهن في المجتمع (كالتدريس والقضاء والطب والهندسة) هي الأداة المنفذة لأهداف وتطلعات أبناء المجتمع، فإذا فقد العاملون فيها آداب وأخلاق مهنتهم، كان ذلك نذير شؤم عليهم، وعلى مجتمعهم، وكان دليلاً على قرب نهايتهم.

ونظراً لاتساع سلطان العلم في عصرنا هذا، وما رافقه من تقنيات مذهلة في معظم مجالات الحياة، ولأن مجالات العمل قد تضاعفت أضعافاً كثيرة عن العصور السابقة، فقد أصبحت الحاجة إلى أخلاق المهنة أكثر إلحاحاً، وأشد ضرورةً، تلافياً لما يمكن أن يوجه إليه المهنة من الاستغلال السيئ من قبل بعض المنحرفين ومرضى النفوس، فتصبح وسيلة للإفساد والتدمير والعبث بمصير البشرية، ولا أدل على ذلك مما نجده في أيامنا هذه من العبث بالجينات الوراثية للمواد الغذائية (الحبوب المعدلة وراثياً) وإدخال كثير من المواد الكيميائية في تركيبة الأغذية على الرغم من التحذيرات الطبية العالمية بأنها موادّ مسرطنة أو ضارة بالإنسان أو بالبيئة، ومثل ذلك الاستنساخ والعبث بخِلْقة بعض الحيوانات وجعلها قطع غيار، والسعي بعد ذلك للعبث بخِلْقة الإنسان، وكذلك التنافس المحموم بين كثير من دول العالم في تصنيع القنابل النووية، إلى الصواريخ العابرة للقارات، إلى غزو الفضاء من خلال أقمار التجسس ... وهكذا. وهذه الأمور التي هي على درجة كبيرة من الخطورة ليس على البشرية فحسب، بل على الكون برمته بكائناته الحية وجماداته، دفعت كثيراً من رجال العلم والفكر في العالم للدعوة إلى وضع مواثيق شرف أخلاقي لحماية سمعة المهنة، والمحافظة عليها.

وقد تمت الاستجابة لهذه الدعوات ووُضِعتْ كثيرٌ من المواثيق، انطلاقاً من قيم البلد ومبادئه، ومن هنا كانت الحاجة ماسةً إلى دراستها، ولو من خلال خطوطه العريضة.

يضاف إلى ذلك فوائد أخرى يمكن جنيها من وراء الالتزام بأخلاق المهنة، منها:

١- أنه يُسهم إلى حدٍ كبيرٍ في تحسين وضع المجتمع، حيث تقل الممارسات غير العادلة، ويتمتع الجميع بتكافؤ الفرص، وتسند الأعمال للأكثر كفاءة ، وتوجه الموارد لما هو أنفع.

٢- أنه يشيع في المجتمع مبدأ التعاون، والعمل بروح الفريق، فيزداد العطاء.

٣- أنه يزيد من ثقة الفرد بنفسه وبالمجتمع، وبالقانون الذي يحكم.

العوامل التى أسهمت فى نشأة علم أخلاق المهنة:

هناك عوامل عديد أسهمت في نشأة علم أخلاق المهنة، أهمها:

١- توصل كثير من منظمات أعمال إلى قناعة مفادها أنهم لن يتمكنوا من استثمار طاقات أفراد المنشأة، وكسب ولائهم، وحسن انتمائهم؛ إلا من خلال غرس قيم أخلاقية محددة تتبناها المنظمة في تعاملها معهم.

٢- ظهور فضائح أخلاقية، ومنافسات غير شريفة، لدى العديد من منظمات الأعمال التي لا تعتمد معايير شفافة وواضحة في تعاملاتها.

٣- ظهور حالات معقدة يصعب الحكم فيها بدقة على ما ينسجم مع البعد الأخلاقي في القرارات، وما لا ينسجم، كما في حالة تحديد السعر المناسب للسلعة.

٤- ظهور دعوات جادة ولا سيما في المجتمعات الصناعية تطالب بالاهتمام بالقيم الأخلاقية والاجتماعية، وضرورة الالتزام بها على صعيد المجتمع والأفراد.

صفات الميثاق الأخلاقي:

لكي يحقق الميثاق الأخلاقي أهدافه يجب أن يتصف بما يلي:

١- أن يكون منسجماً مع قيم المجتمع ومبادئه، ومرتبطاً بها، وتجسيداً لها.

٢- أن يكون مختصراً يسهل حصر جوانبه لتطبيقها، ويسهل قراءته دون ملل.

٣- أن يكون سهل العبارة، واضح الدلالة، يسهل فهمه واستيعابه.

٤- أن يكون واقعياً قابلاً للتطبيق، بعيداً عن مثاليات لا يطيقها أكثر الناس.

٥- أن يكون شاملاً لمختلف جوانب التعامل مع الرؤساء والمرؤوسين والجمهور المستفيد من المهنة.

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) : ما يُعَرَّفُ بأنه: عملٌ راقٍ يجمع بين المعرفة الأكاديمية المتخصصة، والخبرة التطبيقية لها في الميدان هو:

أ- المهنة . **ب- الصنعة .**

ج- الحرفة . **د- الوظيفة .**

(٢) : تهتم أنظمة المهنة بما يجب فعله فحسب، وأما أخلاق المهنة فتهتم بما :

أ- لا يجوز فعله . **ب- ينبغي فعله .**

ج- يجوز فعله . **د- يكره فعله .**

المحاضرة التاسعة : - الأخلاق والآداب الجامعة للمهنة

- الطهارة المهنية

ذكرنا في ثنايا الكتاب جملةً من الأخلاق التي جاء بها شرعنا، إلاَّ أن الحاجة إلى بعضها أشدَّ في حق ممارس المهنة، لما لها من دور إيجابي في الحفاظ على المهنة وأطرافها وسمعتها.

فالمهنة أياً كانت تتطلب التعامل مع أطراف متعددة، ولساعات طويلة ربما تزيد على الساعات التي يقضيها المرء مع أفراد عائلته. وإذا كانت رابطة الزوجية أو القرابة وما تفرزها من عطف وحنان، تدفع أفراد الأسرة لتَحَمُّلِ بعضهم، والتجاوز والتسامح إن رأوا ما يكرهون، فإن أطراف المهنة ليسوا كذلك، إذ ليس بينهم مثل هذه الرابطة القوية، بل ربما لا يكون بينهم أية علاقة جامعة سوى المهنة، ومن ثَمَّ كان المطلوب المزيد من التأكيد على بعض الآداب والأخلاق، لتستمر المهنة، وتكسب ثقة الناس، وتؤدي دورها على الوجه المطلوب.

وفي سبيل تحقيق هذا الأمر صدرت القوانين التي تنظم وضع كل مهنة، كما تمَّ وضعُ صيغٍ للعقود تتضمن الشروط والضوابط التي يجب على المتعاقدين الالتزام بها.

وبذلك تحولت كثيرٌ من الآداب من كونها مرغوباً فيها إلى واجبٍ، يترتب على مخالفته المساءلة

إلا أن الإحاطة بتلك الخصال من خلال القوانين والعقود غير ممكن، لكثرتها وتشعبها، ومن ثمَّ كان الزائد عمَّا نص عليه العقد أو القانون، هو المراد بأخلاق وآداب المهنة، وهي كثيرة، وقد تختلف من مهنة إلى أخرى؛ إلا أننا سنقتصر على الآداب الجامعة منها.

الطَّهارَة المهنية (أو النَّزَاهَة والشَّفَافِيَّة)

معنى الطَّهارَة والنَّزَاهَة والشَّفَافِيَّة:

أولاً : تعريف الطَّهارَةُ:

الطَّهارة لغة: النَّزَاهَةُ مِنْ الْأَقْذَارِ الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ. والطاهِرُ: النزيهُ والشريفُ والبريءُ من العيوب. ولها معنى شرعي يتمثل في رفع الحدث أو إزالة النجاسة، إلا أنا في دراستنا هذه لا شأن لنا به، ومن ثَمَّ اقتصرنا على المعنى اللغوي.

ثانياً: تعريف النَّزَاهَة:

النَّزَاهَة لغة: الترفع والبُعد عن القُبح واللؤم والأقذار. وفلانٌ نازهُ النَّفس: عفيفٌ.

النَّزَاهَة اصطلاحاً: ليس للنزاهة معنىً اصطلاحيٌ لدى علمائنا القدامى، إلاَّ أنها أصبحت تستعمل في العصر الحديث بمعنى: محافظة ممارس المهنة على سمعته وسمعة مهنته نظيفةً بعيدةً عن كل ما يلوثها، وذلك من خلال:

١- السلوك السليم في أعماله كلها بما يتوافق مع القوانين والأنظمة واللوائح.

٢- الابتعاد عن أي عمل يؤثر سلباً على ثقة الجمهور به وبمهنته.

٣- الامتناع عن قبول الهدايا فضلاً عن الرشوة.

٤- المحافظة على مظهره العام على نحوٍ يليق بسمعته وسمعة مهنته.

٥- عدم استغلال منصبه أو علاقاته التي يقيمها أثناء عمله، للحصول على امتيازاتٍ أو خدماتٍ له أو لأحدٍ من أفراد عائلته.

٦- أن لا يضع نفسه تحت أية التزامات مالية أو غير مالية تجاه أشخاص أو مؤسسات يمكن لها التأثير على قدرته في تأدية واجبه.

٧- أن يعامل الناس جميعهم بعدالة ومهنية وتجرد وموضوعية دون انحياز أو تمييز على أساس العرق أو المعتقد أو الوضع الاجتماعي أو غيره.

وهذه المعاني كلها مما جاء بها شرعنا وحث عليها، وتدخل تحت مفهوم الطهارة، ولها تطبيقات في سِيَر أسلافنا حكاماً وقضاةً وولاةً، وفي اجتهادات الفقهاء.

ثالثاً : تعريف الشَّفافية:

الشفَافيَة لغة: من شَفَّ بمعنى رَقَّ. يُقال: شَفَّ الثَّوبُ؛ إذا رَقَّ حتَّى يُرى ما خلفه. والشفاف: ما لا يحجب ما وراءه، وتستعار للشّخص الذي يُظهر ما يُبطن.

الشفَافيَة اصطلاحاً: ليس لدى علمائنا القدامى معنىً اصطلاحيٌ للشفافية، إلا أنها اشتهرت في العصر الحديث بمعنى: "الوضوح والمكاشفة التي تكون تجاه قضايا الفساد المالي والإداري من قبل مؤسسات الدولة وفئات المجتمع". أو "المكاشفة بين الحكومة والشعب، عبر ممثلي الشعب في البرلمان، ومؤسسات المجتمع المدني".

ويتمثل ذلك في الرد على تساؤلات واستفسارات الأجهزة والقنوات المسؤولة في الدولة كالبرلمانات ومجالس الشورى ونحوها، أو من خلال مؤسسات المجتمع المدني كالنقابات المهنية، ومنظمات العمل الطوعي وما أشبه ذلك.

والصلة بين الكلمات الثلاثة (الشفافية والنزاهة والطهارة) غير خافية، وهي أنها جميعاً تفيد المحافظة على السمعة نظيفةً نقيةً بعيدةً عن كل ما يلوثها من الشُّبَه والتُّهَم، ويتحقق ذلك بالوضوح في التعامل -وهو الشفافية- والترفع عن المطامع -وهو النزاهة- ، وقد يعبر عن الاثنين بالنزاهة؛ لأن الشفافية بهذا المعنى لا تعدو أن تكون صورة من صورها، ومعنى من معانيها.

يقول الإمام الماوردي رحمه الله: "وأما النَّزاهةُ فنوعان: أحدُهما: النَّزاهةُ عن المطامع الدَّنيَّةِ. والثَّاني النَّزاهةُ عن مواقفِ الرِّيبة. فأما المطامعُ الدَّنيَّةُ؛ فلأنَّ الطَّمع ذُلٌّ والدَّناءةَ لؤمٌ، وهُما أدفعُ شيءٍ للمروءة. وأما مواقفُ الرِّيبةِ فهي التَّردُّدُ بينَ منزلتيْ حمدٍ وذمٍّ، والوقوفُ بين حالتَيْ سلامةٍ وسقَمٍ، فتتوجَّهُ إليه لائمةُ المُتوهِّمينَ، وينالُهُ ذِلَّةُ المُريبين، وكفى بصاحبِها موقفاً إن صحَّ افتضحَ، وإن لم يَصحَّ امتُهِنَ".

أدلة الشرع في الحَثِّ على التحلي بخُلُق الطَّهارة:

وردت أدلة كثيرة من الكتاب والسنة تحث على التحلي بخُلُق الطهارة (نزاهة وشفافية)، منها :

قوله تعالى مخاطباً النبي ﷺ: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} (المدَّثر: ٤).

قال ابن عبد البر: "جمهور السَّلف على أنَّها طهارة القلب، وطهارة الجيب، ونزاهة النَّفْس عن الدَّنايا والآثام والذنوب".

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (البقرة: ٢٢٢).

وجه الدلالة أن الله يحب التَّائبين، وهم مَنْ فعلوا المعاصي ثُمَّ تركوها، ويحب المُتَطَهِّرين، وهم مَنْ لم يفعلوا المعاصي تَنَزُّهاً عنها.

قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} (الأحزاب: ٣٣).

وجه الدلالة فيها أن الله سبحانه يحب لأهل بيت نبيه ﷺ أن يبعد عنهم الرجس -وهو المعاصي والآثام التي تلوث سمعتهم- وأن يجملهم بالطهارة –التي هي طاعته وتقواه- ولا شك أنه يحب هذا لغيرهم أيضاً من عباده. قال الزمخشري: "وفي هذه الاستعارة (الرجس والطهر) ما يُنفر أولي الألبابِ عَمَّا كَرِهَهُ اللهُ لِعبادِهِ ونهاهُم عنه، ويُرَغِّبهم فيما رَضِيَه لهم وأمَرَهم به".

عن عَدِيِّ بن عميرةَ الكِنْدِيِّ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: (مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ منكم على عَمَلٍ، فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا، فما فوقهُ كان غُلولاً يأتي به يوم القيامة). قال: فقامَ إليه رجلٌ أسود من الأنصار كأني انْظرُ إليه، فقال: يا رسولَ اللهِ، اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ، قال: (وما لَكَ؟) قال: سمِعْتُكَ تقُول: كذَا وكذَا، قال: (وأنا أقولُهُ الآن، مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ منكم على عَمَلٍ، فلْيجِئْ بقَلِيله وكثيرِهِ، فما أوتِيَ منه أخَذَ، وما نُهِيَ عنه انتهى).

وجه الدلالة: أن النبي ﷺيطالب ولاته بالإفصاح عن كل ما أخذوه، ولو إبرة خياطة على تفاهتها. ولا يخفى ما في هذا من المطالبة بالنزاهة والشفافية والوضوح في التعامل.

جاءت صَفِيَّةَ - زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ - تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي المَسْجِدِ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ المَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ، مَرَّ رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: (عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ). فَقَالاَ: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً). فإذا كان هذا حاله ﷺ في مراعاة نفي التهمة عنه مع عصمته، فإن مراعاة نفي التهمة عمَّن هو دونه مطلوبةٌ من باب أولى.

قال ابن دقيقِ العيد: "وهذا مُتأكدٌ في حَقِّ العلماء ومَنْ يُقتدَى به، فلا يجوزُ لهم أن يفعلوا فعلاً يُوجِب سوءَ الظَّن بهم وإن كان لهم فيه مخلصٌ؛ لأنَّ ذلك سببٌ إلى إبطالِ الانتفاعِ بعلمِهم". ويقول عمرُ ﷺ: (مَنْ أقامَ نفْسهُ مَقامَ التُّهْمَةِ؛ فلا يَلومَنَّ مَن أساءَ به الظَّن). ويقول علي ﷺ : (إيَّاكَ وما يَسبقُ إلى القلوب إنكارُه، وإنْ كان عندكَ اعتذارُه، فربَّ سامعٍ نُكراً لا تستطيع أن تُسمعَه عُذراً). وهذه من النزاهة والشفافية كما لا يخفى.

يقول النبي ﷺ: (الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ).

وجه الدلالة من الحديث أن هناك أموراً تشتبه على كثيرٍ من الناس، فلا يتبين لهم وجه الحِلِّ أو الحُرمة، فمن حفظ نفسه من الوقوع فيها، فقد طلبَ لدينه البراءة من النُّقصان، ولعِرْضِه البراءة من العيْب والطَّعن.

وهذه هي الطَّهارة الخُلُقية والنزاهة كما لا يخفى.

صور للطهارة الخلقية من سيرة السلف:

سيرة السلف مليئة بالصور المشرقة التي تتجلى فيها طهارةُ نفوسهم، ونظافةُ يدهم، وترفُّعهم عن مطامع الدنيا إلى حد يفوق التصور، من ذلك:

أن عبد اللَّهِ وعُبيد اللَّهِ ابنا عمرَ بن الخطَّابِ كانا في جيشٍ إلى العراقِ، فلمَّا قَفَلا مرَّا على أبي موسى الأشعريِّ، وهو أمير البصرةِ، فرحَّبَ بهما وسهَّلَ، ثُمَّ قال: لو أقدرُ لكما على أمرٍ أنفعُكُما به لفعلتُ! ثُمَّ قال: بَلى هاهُنا مالٌ من مال اللَّهِ، أريدُ أنْ أبعثَ به إلى أميرِ المؤمنينَ، فأُسلفُكماهُ فتبتاعانِ به متاعاً من متاعِ العراقِ، ثُمَّ تبيعانهِ

بالمدينةِ، فتؤدِّيانِ رأسَ المالِ إلى أميرِ المؤمنينَ، ويكونُ الرِّبحُ لكما، فقالا: وددنا ذلك. ففعلَ، وكتبَ إلى عمر أن يأخُذَ منهما المالَ، فلمَّا قدما باعا فأربحا، فلمَّا دفعا ذلك إلى عمر، قال: أكلُّ الجيشِ أسلفهُ، مثل ما أسلفكُمَا؟ قالا: لا. فقال عمرُ: ابنا أميرِ المؤمنينَ، فأسلفكُمَا، أدِّيا المالَ وربحهُ. فأما عبدُ اللَّهِ فسكتَ، وأما عُبيدُ اللَّهِ فقال: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنينَ هذا ! لو نقصَ هذا المالُ أو هلكَ لضمنَّاهُ. فقال عمرُ: أدِّياهُ. فسكت عبدُ اللَّهِ، وراجعهُ عبيدُ اللَّهِ، فقال رجلٌ من جُلساء عمرَ: يا أميرَ المؤمنين لو جعلتهُ قراضاً؟ فقال عمرُ: قد جعلتهُ قراضاً. فأخذَ عمرُ رأسَ المالِ ونصفَ ربحه، وأخذ عبد اللَّهِ وعُبيد اللَّهِ ابنا عمرَ نصفَ ربحِ المال".

وجه الاستدلال أن عمر ﷺ رأى أن أبا موسى الأشعري ﷺ قد حاباهما بما أعطاهُما لأنهما ابنَا أمير المؤمنين، فأخذ منهما المال والربح، ثم ناقشه ابنه عُبيد الله بأن المال لو هلك لضمناه، فينبغي أن يكون الربح لهما مقابل ضمانهما؛ لأن القاعدة الفقهية تقول: الغُنْم بالغُرْم. ولكن عمر ﷺ لم يقبل ذلك، وأخذ منهم أصل المال المُسْلف، ونصف ربحه كما لو كان عقد مضاربةٍ. واعتبره استغلالاً غير مشروع لمنصبه من قبلهم.

فَرَضَ عمر ﷺ للمُهاجرينَ الأوَّلين أربعةَ آلافٍ في أربعةٍ، وفَرَضَ لابنه عبد الله ثلاثةَ آلافٍ وخمسَ مائةٍ، فقيل له: هو من المُهاجرين فلِمَ نَقَصْتَهُ من أربعة آلافٍ؟ فقال: "إنَّما هاجر به أبواهُ. يقولُ: ليس هو كمَنْ هاجرَ بنفسه".

فجعل حظ ابنه دون غيره، دفعاً للتهمة، وعملاً بالاحتياط.

بُعثَ إلى عمر ﷺبحُلل فقسَّمها، فأصاب كلّ رجلٍ ثوبٌ، ثم صعد المنبر وعليه حُلّةٌ، والحُلَّةُ ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟ فقال سلمان ﷺ: لا نسمع! فقال عمر: ولِم يا أبا عبد الله؟ فقال: إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حُلة! فقال: لا تَعْجَلْ يا أبا عبد الله. ثمّ نادى يا عبد الله. فلم يُجبْهُ أحدٌ. فقال: يا عبدَ الله بنَ عُمر. فقال: لبيك يا أمير المؤمنين. فقال: نَشدتُك الله، الثوبُ الذي اتزرتُ به أهو ثوبُك؟ قال: نعم. فقال سلمانُ: أما الآن فقل نسمع".

وهذا هو ما يعنيه المعاصرون تماماً بالشفافية، حيث هناك مسؤولٌ كبيرٌ في الدولة -بل رأسُها- يتعرض للمساءلة من قِبَلِ بعضِ رعيته في مَحْفلٍ عامٍ، وتهمته مالية، بأنه قد خص نفسه بما ليس من حقه. فتقبله عمر ﷺ بصدرٍ رَحْبٍ، وبَيَّنَ مصدره، وزيادةً في نفي التهمة، لم يتولَّ الجواب بنفسه، بل طلب ممن كان صاحب المال وتنازل له أن يجيبهم، فأجاب، وتحقق له ولهم ما أرادوا من الوضوح والشفافية والبعد عن التهمة.

تطبيقات فقهية :

يتجلى خُلُق النزاهة والطهارة في تطبيقات فقهية كثيرة، ذكرها الفقهاء لدى حديثهم عن بعض المناصب المهمة للعاملين في الدولة في زمانهم، من ذلك:

ترفع الولاة والقضاة عن قَبُول الهديّة:

اتفق الفقهاء رحمهم الله تعالى على أنه يحرم على الولاة والقضاة قَبولُ الهدِيَّة من أحدٍ من النَّاس، إلَّا أن تكونَ مِن شخص كان يُهَادِيهِ قبل تولِيتِهِ لعمله لقرابةٍ أو صحبةٍ أو صِلَةٍ. وقد قال النبي ﷺ (هدايا العمال غلول)، وقال أيضاً حين استَعمَلَ رجُلًا على الصدقة: (ما بالُ العامل نبعَثُهُ فيأتي يقول: هذا لك وهذا لي، فهلَّا جلس في بيتِ أبيه وأمه، فينظُرُ أيُهدى لهُ أم لا، والذي نفسي بيَدِهِ، لا يأتي بشيءٍ إلَّا جاءَ به يوم القيامةِ يَحْمِلُهُ على رَقَبَتِهِ، إن كان بَعِيراً لَهُ رُغَاءٌ، أو بَقَرَةً لها خُوَارٌ، أو شَاةً تَيْعَرُ ...).

قال البغوي: "في الحديث دليلٌ على أنَّ هدايا العُمَّالِ والولاةِ والقُضاة سُحْتٌ، لأنَّه إنَّما يُهدى إلى العاملِ ليُغمض له في بعض ما يَجبُ عليه أداؤهُ، ويبخسَ بحَق المساكين، ويُهدى إلى القاضي ليميلَ إليه في الحكمِ، أو لا

يؤمَنَ من أن تحملهُ الهديةُ عليه". وقال الماوردي رحمه الله: "الهدايا في حق القضاة أغلظُ مأثماً، وأشدُّ تحريماً، لأنهم مندوبونَ لحفظِ الحقوقِ على أهلها دون أخذها، يأمرونَ فيها بالمعروفِ وينهون فيها عن المنكرِ وقد روى أبو هريرة ﷺ عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: (لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ) فخصَّ الحكمَ بالذِّكر لاختصاصهِ بالتَّغليظِ".

مُساءلةُ الولاة: كان عمر ﷺ يطبق مع ولاته على الأمصار مبدأ من أين لك هذا؟ وهو من لوازم مبدأ الشفافية التي ينادي بها المعاصرون. يقول الإمام مالك رحمه الله: "كان عمر بن الخطاب ﷺ يشاطر العمال فيأخذ نصف أموالهم. وشاطر أبا هريرة ﷺ وقال له: من أين لك هذا المال؟ فقال له أبو هريرة: دواب تناتجت وتجارات تداولت. فقال: إذن الشطر. وإنما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم. وشاطر سعد بن أبي وقاص حين قدم من الكوفة. كأنه رأى أن ما أصاب العامل من غير رشوة فإنْ كان حلالاً فلا يستحق ذلك لأن لمن له الإمرة قوة على أن ينال من الحلال ما لا يناله غيره، فجعله كالمضارب للمسلمين".

تولي الجاهل أو الفاسق منصب القضاء:

قال عامة الفقهاء: يحرم على الجاهل تولي منصب القضاء، كما يحرم على ولي الأمر تعيينه في هذا المنصب لما في ذلك من تضييعٍ للحقوق، وإضعافٍ للثقة بالقضاء، وهو ما يتنافى مع مبدأ النزاهة أو الطهارة المهنية.

وكذلك قالوا: لا يجوز تولية الفاسق القضاء مع وجود القاضي العدل، وإن تمَّ ذلك فهو باطل، لأن تولية الفاسق يضعف الثقة بالقضاء، ويؤدي إلى ضياع الحق، وإحلال الظلم، الأمر الذي يتنافى مع مبدأ الطهارة المهنية.

كراهية تولي القاضي البيع والشراء بنفسه:

كَره كثيرٌ من الأئمة للقاضي أن يتولى البيع والشِّراء بنفسه؛ لأنه لو فعل ذلك، "فربما يُحابَى استحياءً منه، أو طلباً لاستمالة قلبه ليميل في حكمه، ولهذا المعنى لما سأل عمر ﷺ النبي ﷺ عن شراء فرسٍ كان قد تصدق به ورآه معروضاً للبيع، أجابه ﷺ بقوله: (لا تَعُد في صدقتك)، أراد أنَّ المُتصَدَّق عليه ربما يستحيي فيحابي، فيكون كالراجع في مقدارٍ مما تصدق به".

منع كثيرٌ من أهل العلم قضاء القاضي بعلمه، وقالوا: إنما يقضي بما حدده له الشارع من البينات، وليس علمه من بينها، وكان دافعهم إلى ذلك منع الهمة عنه. قال البخاري: قَالَ القَاسِمُ: لاَ يَنْبَغِي لِلْحَاكِمِ أَنْ يُمْضِيَ قَضَاءً بِعِلْمِهِ دُونَ عِلْمِ غَيْرِهِ، مَعَ أَنَّ عِلْمَهُ أَكْثَرُ مِنْ شَهَادَةِ غَيْرِهِ، وَلَكِنَّ فِيهِ تَعَرُّضاً لِتُهَمَةِ نَفْسِهِ عِنْدَ المُسْلِمِينَ، وَإِيقَاعًا لَهُمْ فِي الظُّنُونِ. وَقَدْ كَرِهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظَّنَّ فَقَالَ: (إِنَّمَا هَذِهِ صَفِيَّةُ).

وليست هذه الشروط والآداب خاصة بالقضاء، بل هي مطلوبة في عامة المناصب على تفاوتٍ بينها، من الإمارة إلى الوزارة إلى والي المظالم ووالي الحسبة، إلى الإمامة في الصلاة، إلى الولاية في النكاح، والولاية على مال مجنون أو سفيه أو يتيم، إلى ناظر الوقف ... وكلها تؤكد مبدأ النزاهة والشفافية في التعامل مع الناس.

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) : أن لا يضع المرء نفسه تحت أية التزامات مالية يمكن لها التأثير على قدرته في تأدية واجبه يندرج في خلق:

أ- الطهارة المهنية . **ب- الاستقامة المهنية .**

ج- الأمانة المهنية . **د- التعاون المهني .**

(٢) : تولية الجاهل منصب القضاء يقدح في خلق :

أ- الأمانة المهنية . **ب- الطهارة المهنية .**

ج- التعاون المهني . **د- الاستقامة المهنية .**

المحاضرة العاشرة : خُلُق الأمانة المهنية

تعريف الأمانة

الأمانة لغةً: ضِدُّ الْخِيَانَةِ، ومعناها؛ الاطمئنان وسكون القلب. والأَمْنُ: ضِدُّ الْخَوْفِ.

وفي الاصطلاح: عُرِّفت بأنها: "كلُّ ما يُؤتمن عليه المرءُ من أموال وحرمات وأسرار". وعُرِّفت بأنها: "خُلُقٌ ثابتٌ في النّفس يَعفُّ به الإنسان عَمّا ليس له به حقٌ -وإنْ تهيّأت له ظروفُ العدوان عليه دون أن يكون عُرْضةً للإدانة عند النّاس- ويؤدّي به ما عليه أو لديه من حقٍ لغيره -وإنْ استطاع أنْ يَهضمَه دون أن يكون عُرْضةً للإدانة عند النّاس-". فالأمانة تشتمل على ثلاثة عناصر:

الأوّل: عِفّة الأمين عمّا ليس له به حقٌ.

الثّاني: تأدية الأمين ما يجب عليه من حقٍ لغيره.

الثّالث: اهتمام الأمين بحفظ ما استؤمن عليه من حقوق غيره، وعدم التّفريط بها.

وهذه العناصر الثلاثة مطلوبة في المهنة، إلا أن الأول منها تناولناه تحت عنوان النزاهة والشفافية، ويبقى الآخران، وهما ما عليه مدار حديثنا في هذه المحاضرة.

إذاً فالأمانة تعني الحفاظ على أسرار المهنة، والحفاظ على مصالحها، والحفاظ على حقوق الآخرين وعدم الخيانة فيها:

فأما الحفاظ على أسرار المهنة فيكون بالحفاظ على خصوصية العلاقة بين أطراف المهنة بحسب طبيعة المهنة، والحفاظ على كل ما يعرف عند الناس بأنه إفشاءَه نقضٌ للعهد، وخيانةٌ لأسرار المهنة.

فالطبيب مثلاً يطالب بالحفاظ على أسرار المشفى، وأسرار مرضاه، ووضعهم الصحي، مما يُعد سراً في عرف المهنة، فيمتنع عن اطلاع الآخرين عليها.

والمشفى يحتفظ بالأسرار المتعلقة بالطبيب من حيث مُرَتبه أو الجزاءات الإدارية الواقعة عليه مثلاً، وكذا الأسرار المتعلقة بالمريض مما يعد كشفه إفشاءً لأسراره.

والمريض يحتفظ بالأسرار المتعلقة بالمشفى كمراعاة ظروفه الخاصة، والأسرار المتعلقة بالطبيب كأن يكون قد سمح له بمراجعته في بيته أو خارج أوقات الدوام الرسمي، أو غير ذلك مما يعد إفشاؤه مزعجاً للطبيب.

وأما عدم الخيانة في المهنة فيتمثل في الحفاظ على مصالحها، وذلك بأن لا يقدم مصالحه الشخصية على مصالحها؛ فلا إسراف في الإنفاق، ولا استغلال للمهنة من أجل مصالحه.

فالطبيب مثلاً لا يستغل ما وضع تحت تصرفه من الأجهزة في سبيل معالجة أصحابه وقرابته من غير إذن صاحب العمل، كما أنه لا يسرف في استعمال الأدوات الطبية التي وضعت تحت تصرفه.

والمشفى لا يستغل الطبيب في طلبه خارج أوقات دوامه في سبيل مصالحها.

والمريض لا يستغل فرصة وجوده مع الطبيب في السؤال عن أعراض مرضية يعاني منها بعض من يخصونه ... وهكذا.

وأما الحفاظ على حقوق الآخرين فتتمثل في عدم غشهم، أو خداعهم، أو التنكر لأماناتهم التي استودعوها إياه.

الأدلة الشرعية في الحث على الأمانة المهنية:

يدل لخُلُق الأمانة آياتٌ عديدةٌ من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، منها :

١- قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} (النساء ٥٨). وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (الأنفال ٢٧).

فالآية الأولى تتناول الجانب الإيجابي في الأمانة، فتأمر بالحفاظ عليها، وأدائها على وجهها المطلوب، والثانية تتناول الجانب السلبي فيها، فتنهى عن الخيانة فيها، وهو ما يعني أيضاً أداءها على الوجه المطلوب.

ولا يخفى أن الأمانة المهنية تمثل جانباً مهماً من الأمانات المأمور بها. يقول القرطبي رحمه الله: هَذِهِ الْآيَةُ {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمانات} مِنْ أُمَّهاتِ الأحكامِ تَضَمَّنَتْ جميع الدِّينِ والشَّرعِ. والأظهرُ أنَّها عامةٌ في جميعِ النَّاسِ فهي تَتَناولُ الولاةَ فيما إليهم مِنَ الأماناتِ في قسْمةِ الأموالِ وردِّ الظُّلاماتِ والعدلِ في الحكوماتِ. وتتَناولُ مَنْ دونهم مِنَ النَّاسِ في حفظِ الودائعِ والتَّحرُّزِ في الشَّهاداتِ وغيرِ ذلك".

٢- قال تعالى: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ* إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} (التحريم: ٣).

وجه الدلالة في الآية أن الله سبحانه عَرَّضَ بملامة إحدى أزواج النبي ﷺ على إفشائها ما أسَرَّ به ﷺ إليها، وعَدَّه من موجبات التوبة.

٣- قال رسول الله ﷺ في صفات المنافقين: (آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ). فعَدَّ خيانة الأمانة من علامات النفاق.

٤- قال ﷺ : (مَنْ حَدَّثَ فِي مَجْلِسٍ بِحَدِيثٍ فَالْتَفَتَ، فَهِيَ أَمَانَةٌ). أي أنه لا يجوز نقل كلام شخص وإفشاؤه، وإن لم يطلب كتمانه صراحة، أو يقل: هذه أمانة، بل يكفي أن يفهم منه ذلك بمجرد الإشارة؛ كالالتفاتة التي تشير إلى أن صاحبها يريد أن يخفي الخبر.

٥- وصف الله المؤمنين المفلحين في كتابه العزيز بأوصاف كثيرة، من جملتها مراعاة الأمانة، فقال سبحانه: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} (المعارج ٨).

والأدلة في الحث على الأمانة كثيرة جداً، وفي هذا القدر كفاية.

صور وتطبيقات للأمانة المهنية:

ذكر الفقهاء أن التحلي بخُلُق الأمانة من الضرورات المطلوبة لتولي المناصب أو تحمل المسؤوليات في الأمة، كالإمارة والقضاء والحسبة والإفتاء والولاية على اليتيم وعلى الصدقات (بيت المال) والوقف ... وفيما يلي نستعرض بعض النماذج:

١- طلب أبو ذَرٍّ ﷺ من النبي ﷺ أن يوليه الإمارة، قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا). فامتنع أن يوليه، لأن التولية أمانةٌ في عنقه، ويجب أن يستعمل فيها من يراه أهلاً لأدائها، وأبو ذرٍ رجلٌ ضعيف لا يصلح لها.

٢- جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله متى الساعة؟ قال ﷺ : (إذا ضيّعت الأمانة فانتظر السّاعة). قال: كيف إضاعتها؟ قال: (إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر السّاعة).

فجعل رسول الله ﷺ تولية غير الكفء في المنصب خيانةً للأمانة، وعلامة على فساد الأحوال، وقرب قيام الساعة.

٣- لما أُتِي عمر ﷺ بتاجِ كسرى وسواره، جعل يُقلبهما بعودٍ فِي يده ويقول: والله إن الَّذي أدّى هذا لأمين! فقالَ رجل: يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله، يؤدون إليك ما أدّيت إلى الله، فإذا رتعت رتعوا. ثم قَامَ عمر فِي النَّاس خطيباً فكان مما قال: "أَلا وَإِنِّي مَا وجدت صَلَاح مَا وَلَّاني اللهُ إِلَّا بِثَلَاث: أَدَاء الْأَمَانَة، وَالْأَخْذ بِالْقُوَّةِ، وَالْحكم بِمَا أنزل الله".

٤- عندما أراد أبو بكر وعمر رضي الله عنهما جمع القرآن بعثا إلى زيد بن ثابت ﷺ فقال له أبو بكر ﷺ (... إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لاَ نَتَّهِمُكَ، قَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ). ومعنى قولك لا نتهمك: أي أنك أمين. ومن هنا قال عامة أهل العلم بأنه ينبغي للسلطان والحاكم أن يتخذ كاتباً عاقلاً فطناً أميناً. وهكذا قالوا: في القاضي أيضاً والمحتسب والوصي وأهل المشورة وغيرهم ممن يوكل إليهم أمرٌ من أمور الناس. قَالَ سيدنا عَلِيٌّ ﷺ : "حَقٌّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَيُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَحَقٌّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيُطِيعُوا وَيُجِيبُوا إِذَا دُعُوا".

٥- ومن صور الأمانة التي تتجلى في أخلاق التجَّار ما ذكره فقهاؤنا في (بيوع الأمانة)، وهي البيوع التي يؤتمن فيها البائع على إخباره برأس مال السلعة، بأن يقول المشتري للبائع: اشتريت منك هذه السلعة بالثمن الذي اشتريتها به (وتسمى تولية)، أو بما اشتريتها به وزيادة كذا (وتسمى مرابحة)، أو بنقصان كذا (وتسمى وضيعة).

٦- ومن صور الأمانة التي ذكرها فقهاؤنا أيضاً وتتعلق بأخلاق التجَّار الامتناع عن الغش والخداع في المهنة لقوله ﷺ: (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا). ومن صور الغش:

أ- التدليس بما يوهم سلامة المبيع كما في قصة مرور النبي ﷺ بصُبرة طعام فأدخل ﷺ يدَه فيها، فأصابَها البللُ، فقال: (ما هذا يا صاحِبَ الطَّعَامِ؟) قال: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: (أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي).

ب- التغرير بإظهار أوصاف مرغوبة في المبيع إيهاماً وخداعاً للناس، كما في التصرية، وهي: ترك حلب الدابة مدة من الزمن، حتى يجتمع قدرٌ كبيرٌ من الحليب في ضرعها، فيتوهم الراغب أنها كثيرة اللبن، فيقدم على شرائها، فيقع ضحية تغريره وخداعه.

ت- وقد حرَّم الشرعُ هذا العمل وعدَّه من الخداع والغش، والإخلال بالأمانة. قال ﷺ : (لا تَصُروا الإبل والغنم).

ث- ويلحق بهذا كل عمل من شأنه خداع الآخرين وإغراؤهم بالشيء، كأن يستخدم أصباغاً خادعةً تخفي حقيقة وضع السلعة، أو نكهات تخفي حقيقة الطعم الأصلي لها، أو أنواعاً من زيوت المحركات لإخفاء وضع محرك السيارة ساعة من الزمن حتى يتم بيعها، وهكذا.. وهذا كله تدليسٌ وغشٌ محرمٌ، ويخالف الأمانة الخُلقية.

ج- الخداع بما يوهم كثرة الراغبين في شراء السلعة ليرفع عليهم الثمن أو الأجرة، كما في النجش. وهو: أن يبدي شخصٌ رغبةً في شراء سلعة لا ليشتريها، بل لإغراء غيره بها، وإيهامه بكثرة الراغبين فيها. وهو أيضاً محرمٌ شرعاً، لقوله ﷺ: (ولا تناجشوا). ويلحق به ما يشبهه من أنواع الغش والخداع مما يستثير الناس، ويغري بالشراء.

د- ومنه المسترسل وهو: الشخص الذي يتصف بسلامة السريرة، ويجهل قيمة السلعة، ولا يحسن المساومة، فيطمئن إلى صدق البائع ويستسلم له، فيستغل البائع ذلك فيه، فيبيعه بغبن فاحش (أي بزيادة كبيرة لا تكون عادة بين المتبايعين استغلالاً لاسترساله) فقد قال الرسول ﷺ في النهي عن ذلك: (غبن المسترسل حرام) وفي

روايات: (ربا). أي أن خداعه واستغلاله حرام شرعاً، وأن تلك الزيادة ربا ولا تحل. وحين أخبر النبي ﷺ عن رجل يُغْبَنُ (أي يُخدع) في بيعه، قال له النبي ﷺ : (إذا بايعت فقُلْ لَا خِلَابَةَ) ، أي؛ لا خديعة. بمعنى أني اشتريت منك بشرط أن لا تكون قد خدعتني. فإذا تبين أنه قد خدعه، كان له الخيار في إبطاله.

هـ - ومنه الغش في المكيال والميزان، وقد ورد التحذير منه في أكثر من موضع في القرآن الكريم، بل إن سورة من سور القرآن الكريم سميت باسم المطففين، أي المتلاعبين بالمكاييل والموازين. قال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ} ولا شك أن الانتهاء عن هذه التصرفات من شأنها أن تؤسس لخلق الأمانة المهنية.

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) التدليس بما يوهم سلامة المبيع كما في قصة مرور النبي ﷺ بصُبرة طعام يقدح في خلق

أ- الأمانة المهنية . ب- الاستقامة المهنية .

ج- الطهارة المهنية . د- التعاون المهني .

(٢) : أن يبدي شخصٌ رغبةً في شراء سلعة لا ليشتريها، بل لإغراء غيره وإيهامه بكثرة الراغبين فيها يسمى:

أ- الغش . ب- النجش .

المسترسل . د- الاحتكار .

المحاضرة الحادية عشرة : خُلُق الاستقامة المهنية

معنى الاستقامة :

الاستقامة لغةً: تأتي بمعاني متعددةٍ منها: الثبات والدوام والملازمة، والاستواء وعدم الميل أو الاعوجاج، والاعتدال. والمحافظة على الشيء بما يصلحه. وبكل هذه المعاني وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

والاستقامة في الاصطلاح: عرفها الجرجاني بأنها: "الوفاء بالعهود كلها، وملازمة الصراط المستقيم برعاية حد التوسط في كل الأمور. وقيل: الجمع بين أداء الطاعة واجتناب المعاصي". وقيل "دوامُ قيامِ العِلمِ والعملِ بلا تركٍ".

وقيل: "التّمسّك بأمر الله تعالى فعلاً وتركاً".

وقال ابن القيّم رحمه الله تعالى: "هي القيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصّدق، والوفاء بالعهد. وتتعلّق بالأقوال والأفعال والأحوال والنّيّات. فالاستقامة فيها، وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله".

والذي يظهر أن الاختلاف بين هذه التعريفات لفظيٌ، وأنها جميعاً تدور حول معنى واحدٍ، وهو لزوم الطاعة، والثبات عليها، والوفاء بالعهد والتوسط فيها.

وهذه المعاني كلها مطلوبة في ممارسة المهنة، كما سيأتي.

الأدلة الشرعية في الحث على التحلي بالاستقامة:

حَثَّت آياتٌ وأحاديثٌ كثيرةٌ على وجوب التحلي بخُلُق الاستقامة، من ذلك:

١- قوله تعالى: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا} (هود: ١١٢).

وجه الدلالة: أنها أمرت الرسول ﷺومن معه من المؤمنين بالالتزام والثبات والمداومة على ما جاءه من الله تعالى من أوامر ونواهي. قال ابن عاشور: "وقد جَمعَ قولُهُ: فاستَقِمْ كما أُمِرْتَ أصولَ الصَّلاحِ الدِّينيِّ وفروعه لقولِهِ: كما أمِرْتَ ... وشملَ الطُّغيَانُ أصولَ المفاسِدِ، فكانت الآيةُ جامِعَةً لإقامَةِ المصالِحِ ودرءِ المفاسِدِ". والاستقامة المهنية فرع عن الاستقامة عامة، فتدخل فيها.

٢- وَقالَ تَعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} (فصلت: ٣٠).

وجه الدلالة في الآية: أنها تخبرنا أن الإيمان بالله من خلال القول غير كاف، حتى يضم إليه الاستقامة المتمثلة في الدوام والثبات على العمل الصالح. يقول ابن عاشور: "جَمعِ قولُهُ: {قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا} أصْلَي الكمالِ الإسلامِيِّ ... فالكمالُ علمٌ يقينِيٌّ وعملٌ صالحٌ، فمعرفةُ اللَّهِ بالإلهيَّةِ هي أساس العلم اليقينيِّ. وأشار قولُهُ: {استقاموا} إلى أساسِ الأعمالِ الصَّالحةِ وهو الاستقامةُ على الحقِّ، أي أن يكُونَ وسطاً غيرَ مائلٍ إلى طرفيِ الإفراطِ والتَّفريطِ".

٣- قوله تعالى في صفات عباد الرحمن: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (الفرقان: ٦٧) أي أن هؤلاء العباد الصالحين يتصفون بالاعتدال حتى في حالة الإنفاق في أوجه البر، فلا إفراط ولا تفريط. وإذا كان هذا مطلوباً في الإنفاق مع حث الشارع عليه، فلأن يكون مطلوباً في غيره من الأمور المباحة أولى.

٤- عن سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ ﷺ قال: قلت: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً بَعْدَكَ. قَالَ: (قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ).

وجه الدلالة: أنه سأل الرسول ﷺ أنْ يُعلمه كلاماً جامعاً لأمر الإسلام كافياً حتّى لا يحتاجَ بعدَه إلى غيره، فأمره بالاستقامة من غير تخصيص بجانب معين من جوانب الحياة، فيكون شاملاً ومستغرقاً لجميعها بما فيها المهنة.

صور وتطبيقات للاستقامة المهنية:

رأينا أن من معاني الاستقامة الوفاء بالعهد وعدم نقضه والثبات والدوام عليه، ومن معانيه الاعتدال والتوسط، ومن معانيه تعهد الأمر والمحافظة عليه بما يصلحه. ويتجلى ذلك في كثير من المجالات التي ذكرها فقهاؤنا كالحُكْمِ والقضاء والمعاملات، وفيما يلي ذكر لبعض هذه المظاهر:

١- الوفاء بالمعاهدات والاتفاقيات التي يعقدها الحاكم المسلم مع غيره من الحكام في مختلف المجالات، فإنه يجب عليه الوفاء بها. ومثال ذلك ما وقعه النبي ﷺ مع قريش (صلح الحديبية)، وكذا مع يهود بني قريظة وبني النضير، والتزم بها النبي ﷺ بأمر الله حتى صدر منهم النقض والغدر. لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} (المائدة: ١)، وقوله عزَّ من قائلٍ: {فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ} (التوبة: ٤)، ولو مات الحاكم الذ عقد المعاهدة أو عُزِل لم يَجزْ لمن يأتي بعده نقض ما عقده وإن رأى فساده؛ لأنَّ الأوَّل عقدها باجتهاده، فلم يَجُزْ نقضُهُ باجتهاد غيره.

٢- الوفاء بالعقود والشروط التي تكون في عقود الزواج أو التجارات أو عقود العمل أو غيرها من العقود، فإن واجب الطرفين شرعاً الوفاء بما كان بينهم من شروط لقوله ﷺ (المسلمون على شروطهم). فالحديث عام في إيجاب الوفاءِ بجميع ما يَشترطُهُ الإنسانُ على نفسه، ما لم تَقُمْ دلالةٌ تُخَصِّصُهُ يقول ابن القيم رحمه الله: "الشَّرطُ الجائزُ بمَنزلة العقد، بل هو عقدٌ وعهدٌ، وقد قال اللَّهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١] وَقَالَ: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا} الشُّروطُ في حَقِّ المكلَّفين كالنَّذر في حقوق رب العالمين، فكلُّ طاعةٍ جاز فعلها قبل النَّذر لزمت بالنَّذر، وكذلك كلُّ شرطٍ قد جاز بذلُهُ بدون الاشتراطِ لزِمَ بالشَّرطِ، فمقاطعُ الحقوقِ عند الشُّروط".

وعليه فإن القاضي والطبيب والمهندس والمحاسب وغيرهم كلٌ في مهنته مطالب بأن يُلِمَّ بالقوانين والأنظمة النافذة ويطبقها دون أي تجاوزٍ أو مخالفةٍ أو إهمالٍ، وأن يلتزم بمتطلبات المهنة فيحرص على الدوام، ولا يتغيب أو يتأخر عن عمله إلا في حالات الضرورة، لما في ذلك من إضرار بمصالح المهنة، ومنافاةٍ للوفاء بالعقود، وقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}(المائدة:١).

٣- لزوم التوسط والاعتدال في أداء الطاعات والأعمال، فإن خير الأمور الوسط، وقد رأينا كيف أن الله أثنى على عباده المؤمنين الذين يَلْزَمونَ التوسطَ والاعتدالَ في الإنفاق في سبيل الله.

وكذلك أوجب الله النفقة للزوجة على زوجها، وللولد على والده بالمعروف، وهو التوسط والاعتدال، فقال تعالى: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} (البقرة: ٢٣٣)، وقال ﷺ لهند زوجة أبي سفيان حين اشتكت من شُح زوجها رضي الله عنهما: (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف). قال القرطبي: "أَيْ بِالْمُتَعَارَفِ فِي عُرْفِ الشَّرْعِ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيطٍ وَلَا إِفْرَاطٍ".

وكذا الحاكم والوالي والوصي على اليتيم، والشريك المضارب بالمال يتاجر به، يأخذون نفقتهم من المال الذي بين أيديهم بالمعروف، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: لما استُخلِفَ أبو بكر الصِّديقُ ﷺ، قال: (لقد عَلِمَ قَوْمِي أَنَّ حِرْفَتِي لَمْ تَكُنْ تَعْجِزُ عَنْ مَئُونَةِ أَهْلِي، وَشُغِلْتُ بِأَمْرِ المُسْلِمِينَ، فَسَيَأْكُلُ آلُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ هَذَا المَالِ، وَيَحْتَرِفُ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ).

قال البغوي: "يجوزُ للوالي أن يأخذَ من بيت المال قدْرَ كِفَايَتِهِ من النَّفَقَةِ، والكِسْوَةِ لنفسه، ولمن يَلزَمُهُ نَفَقَتُهُ..". وقالت عائشةُ رضي اللَّه عنها "يأكُل الوصيّ بقدر عمالته لقوله تعالى: {وَمن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُل بِالْمَعْرُوفِ} قالت: أنزَلَ اللَّهُ ذلك فِي والِي مَالِ اليتيمِ يقومُ عليه بما يُصلِحُهُ إن كانَ مُحْتَاجاً أن يأكل منه". وقال عمرُ ﷺ "إني أنزلت نفسي من مال اللَّه بمنزلة قَيِّم اليتيم إن استغنيتُ عنه تركتُ وإن افتقرتُ إليه أكلتُ بالمعروف".

وفي هذا القدر كفاية لبيان ضرورة التحلي بخُلُق الاستقامة عموماً وفي المهنة على وجه الخصوص لما لها من أثر عظيم على استقرار أحوال الناس وصلاح معايشهم.

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) : لزوم التوسط والاعتدال في أداء الطاعات والأعمال يندرج في خلق:

أ- الاستقامة المهنية . ب- الطهارة المهنية .

ج- الأمانة المهنية . د- التعاون المهني .

(٢) : الوفاء بالمعاهدات والاتفاقيات التي يعقدها الحاكم المسلم مع غيره يندرج في خلق :

أ- الأمانة المهنية . ب- الاستقامة المهنية .

ج- التعاون المهني . د- الطهارة المهنية .

المحاضرة الثانية عشرة : خُلُق التعاون المهني

تعريف التعاون المهني:

التعاون لغة: المساعدة، مِنْ عاونه وأعانه إذا ساعده وكان ظهيراً له. والمعاون: المساعد والظهير على الأمر.

وليس للتعاون معنى اصطلاحي خارج عن معناه اللغوي.

فالمقصود بهذا الخُلُق أن يساعد أطراف المهنة بعضهم في أدائها بروح الفريق.

وإنما يتحقق ذلك بالتزام الأطراف تسييد معاني الأخوة، والتناصح، والشورى والصبر على المكار.

الأدلة الشرعية في الحَثِّ على التعاون:

وردت آيات وأحاديث كثيرة تحث المسلم على التحلي بخلق التعاون، منها:

١- قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى} (المائدة: ٢).

وجه الدلالة في الآية أنها أمرت المؤمنين بالتعاون على البِر والتقوى، والبر اسم جامع لكل خير، ولا شك أن التعاون على أداء المهنة ومتطلباتها أحد صورها، مادامت في إطار الحلال، فيكون مأموراً به.

٢- قوله تعالى على لسان ذي القرنين: {قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً} (الكهف:٩٥). وذو القرنين؛ هو مَنْ هو في قوته ودهائه، وقد طلب العون لإنجاز ما يريدونه، لأن الفرد قليل بنفسه، كثير بإخوانه.

٣- قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: {واجعلْ لِّي وزيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} (طه: ٢٩– ٣٢).

وجه الدلالة أن موسى عليه السلام سأل الله أن يجعل أخاه هارون عليه السلام وزيراً له، (والوزير من

المؤازرة، وهي المعونة والمساعدة)، ليعينه في حمل أعباء الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة، لما لذلك من دورٍ مهم في أداء المهمة على الوجه الأكمل.

٤- قوله ﷺ: (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ).

وجه الدلالة في الحديث أنه يحث المسلم على التيسير على المعسر والسعي في قضاء حوائج الناس سواءٌ كان هذا السعي في نفعهم بعلم أو مال أو جاه أو نصح أو دلالة على خير أو إعانة بنفسه أو سفارته أو وساطته أو شفاعته أو دعائه له يظهر الغيب". وإذا كان هذا مطلوباً بين المسلمين عامة، فلأن يكون مطلوباً بين أطراف المهنة الواحدة من باب أولى.

٥- قوله ﷺ (إِنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً. وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ).

وهذا الحديث كسابقه يحث على التعاون والتعاضد بين المؤمنين، وأطراف المهنة أولى الناس بذلك بلا شك

كيف يتحقق التعاون بين أطراف المهنة؟

يتحقق التعاون بين أطراف المهنة على أكمل صورة بتحقق جملة الأمور:

أولاها: استحضار معنى الأخوة مع زملاء المهنة، وهذا أهم الشروط لتحقق التعاون المهني، إذ تكاد الشروط الأخرى تكون نابعة ومتفرعة عنه، فالأخوة تستلزم الترفع فوق الأنا، وتستلزم السماحة، والصبر على المكاره، وإسداء النصح وغيرها من المعاني التي نبه إليها الرسول ﷺ في جملة من الأحاديث، لعل من أجمعها قوله ﷺ: (المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ)، فإذا استحضر أطراف المهنة هذه الإخوة وما يتفرع عنها من الحقوق ساد بينهم التعاون والتكاتف، والعمل بروح الفريق وحقق ذلك مصالح المهنة على أكمل وجه.

ثانيها: إنكار الذات والترفع عن الأنا، والالتفات إلى روح الجماعة والتعاون، وبقدر ما يستطيع أطراف المهنة التخلص من أنانيتهم، يكون التعاون بينهم أكبر، ويكون ذلك في صالح المهنة، وقد اعتبر الرسول ﷺ هذا المعنى علامة على استكمال الإيمان فقال: (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).

ثالثها: السماحة في التعامل مع زملاء المهنة، والتحلي بكرم النفس، والتماس الأعذار لهم، واحتساب ذلك عند الله سبحانه، فالمؤمن هين لين، يألف ويؤلف، ويقول ﷺ : (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحاً إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى).

رابعها: الصبر على المكاره، وذلك أن ممارسة المهنة تستلزم المخالطة، ولا بد في المخالطة من مواجهة تصرفات قد لا تعجبك، أو تلحق بعض الأذى بك بقصد أو بغير قصد، من زملاء المهنة، أو من غيرهم من الأطراف المستفيدة من المهنة، ومن ثم كان الصبر مطلوباً لتحقيق التعاون المهني، وقد حث الرسول ﷺ على الصبر على أذى الناس بقوله: (المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم).

خامسها: بذل النصيحة لأطراف المهنة المختلفة، لأنها حق المسلم على أخيه المسلم، وهذا الحق يتأكد كلما كانت الخلطة أكثر، والحاجة أشد كما هو الحال بين أطراف المهنة. روى تميم الداري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: (لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ). ولا يخفى أن بذل النصح وجه من وجوه التعاون على البر والخير والنفع.

صور وتطبيقات يتجلى فيها خُلُق التعاون:

هناك تصرفات وعقود كثيرة ذكرها فقهاؤنا ويتجلى فيها صور التعاون بين أطرافها، من ذلك:

١- التنافس الشريف فيما يكون فيه صالح المهنة ونفعها، والذي يحرص فيه كل طرف أن يبذل ويضحي أكثر من غيره من أطراف المهنة في سبيل تحقيق نجاح أكبر للمهنة، ومثل هذا التنافس محمود ومطلوب، ويمكن اعتبار قول النبي ﷺ يوم بدر للمجاهدين: (مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ)، من هذا القبيل.

٢- مما ورد من الصور العملية لهذا الخُلُق عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم: أن أبا بكر الصدِّيق ﷺ كان يحلبُ للحيِّ أغنامهم، فلمَّا استُخلِف، قالت جاريةٌ منهم: الآن لا يحلُبُها، فقال أبو بكر ﷺ : بلى وإني لأرجو أن لا يغيِّرني ما دخلتُ فيه عن شيءٍ كنتُ أفعلُه.

وكان عمر يتعاهد الأرامل فيستقي لهنَّ الماءَ باللَّيل.

وكان أبو وائل يطوفُ على نساء الحيِّ وعجائزهم كلَّ يوم، فيشتري لهنَّ حوائجهنّ وما يُصلِحُهُنَّ.

وبعث الحسنَ البصريَّ ﷺ بعض أصحابه في قضاء حاجة لرجل، وقال لهم: مُرُّوا بثابت البناني فخذوه معكم. فأتوا ثابتاً، فقال: أنا معتكف. فرجعوا إلى الحسن فأخبروه. فقال: قولوا له: يا أعمش أما تعلم أنَّ مشيك في حاجةِ أخيك المسلم خير لك مِنْ حجة بعد حَجَّةٍ؟ فرجعوا إلى ثابتٍ، فترك اعتكافه وذهب معهم.

٣- من الصور التي ذكرها الفقهاء ويتجلى فيها خُلُق الإعانة (الإقالة في العقود)؛ وتعني فسخ العقد وإبطاله تلبية لرغبة أحدهما، بعد إبرام العقد، ولزومه وترتب آثاره؛ أي أن أحد الطرفين يندم على الصفقة بعد إبرامها ولزومها، فيأتي صاحبه، ويبدي له ندمه، فيستجيب له صاحبه تقديراً لظروفه، ويقبل بفسخ العقد تنفيساً لكربته، ورعاية لحق الأخوة التي قررها الشرع. وقد أجمع الفقهاء على أن الإقالة مندوبة، وأنها من باب التعاون على البر، وقد قال فيها ﷺ: (من أقال مسلماً عثرته، أقال الله عثرته يوم القيامة). والإقالة كما تكون في البيوع قد تكون في الإجارات، وقد تكون بين مريض وطبيب أو مريض ومشفى، أو طبيب ومشفى، أو مهندس وشركة مقاولات، أو من يريد إنشاء مبانٍ ومحلات تجارية ومهندس .. وهكذا.

٤- حرمت الشريعة المنافسة غير الشريفة، لأنها توغر الصدور، وتجلب الحقد والكراهية، وتنافي أخوة الدين، والتعاون على البر، ومن صور تلك المنافسة غير الشريفة؛ الخِطبة على الخِطبة، أو البيع على البيع. قال ﷺ: (لا يخطِب أحدكم على خِطبة أخيه، ولا يبع على بيع أخيه، إلا بإذنه). فالذي يقدم على خِطبة امرأة، من بعد أن تمت خِطبتها، وتم الاتفاق، يَقْدِمُ على عملٍ مشين، وكذا من يسعى لنقض عقد بيعٍ قد تمَّ وأُبرم، فيقول للمشتري: ردَّ عليه سلعته وأبيعك مثلها بأرخص، أو أبيعك أحسن منها بنفس السعر! ومثل هذا العمل مذموم لا يرضاه الله لعباده المؤمنين، وينافي خلق الأخوة والتعاون الذي يحث عليه الدين.

٥- عدم بخس أشياء الناس بتعييبها والتزهيد فيها والمخادعة في قيمتها، خلافاً لما يفعله البعض ويعتبره شطارة وذكاءً. فقد نهى الله عن هذا الخُلُق فقال: {وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} (الْأَعْرَاف: ٨٥)، وأمر بدلاً من ذلك ببذل النصح لأخيه المسلم، فقد كان رسول الله ﷺ يبايع أصحابه على بذلها لكل مسلم، كما يأخذها عليهم المبايعة في الفرائض، ومن صور ذلك ما حصل مع جرير بن عبد الله الجلي ﷺ حيث أقدم على شراء فرس، فطلب صاحبها مائتي درهم، فوجد جرير أن الفرس تستحق أكثر، وأنه يجهل قيمتها، فزاده في سعرها إلى ثلاث مائة، فوافق البائع، فنظر جرير فوجد أنه فرسه تستحق أكثر، فزاده إلى أربع مائة ... حتى أوصلها إلى ثمان مائة درهم، ثم قال: (بايعت رسول الله على السمع والطاعة، فشرط عليَّ: والنصح لكل مسلم)، ولا يخفى عظمة هذا الخُلُق الذي يدعو إليه الإسلام، وأثره في نشر الإخاء والتعاون بين أبناء المجتمع عامة، وأطراف المهنة خاصة.

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) : إنكار الذات والترفع عن الأنا، والالتفات إلى روح الجماعة والتعاون يندرج في خلق:

أ- الاستقامة المهنية . ب- الطهارة المهنية .

ج- الأمانة المهنية . د- التعاون المهني .

(٢) : قول النبي ﷺ : (إِنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً) يفيد الحث على خلق :

أ- الاستقامة المهنية . ب- الطهارة المهنية .

ج- الأمانة المهنية . د- التعاون المهني .

المحاضرة الثالثة عشرة : خُلُق المحبة المهنية

تعريف المحبة:

الحب لغة: نقيض البغض. وهو: الوُدُّ، وميلُ الطبع إلى الشيء الملذ. والتحبب: إظهار الحب. والتحابُّ: التوادُّ.

وليس للحب معنى اصطلاحي خارج عن معناه اللغوي.

أنواع المحبة: للمحبة أنواع متعددة، منها:

١- محبة إيمان وكمال طاعة وتعظيم مطلق، وهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله. قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} (البقرة: ١٦٥)، فتتمثل في حب الله وحب ما أمر به الله كحب رسوله ﷺ، وحب آل بيت رسوله، وحب تلاوة القرآن، وحب الإنفاق في سبيل الله، وقال ﷺ : (ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ).

٢- محبة فطرية جِبِلِّيةٌ كحب الولد، وحب المال، وحب الحياة، وحب الطِّيب، وحب الماء البارد على الظمأ وهي أشياء يستوي في حبها المؤمن والكافر، والكبير والصغير، والرجل والمرأة، فالجميع مفطورٌ عليه، كما في قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ} (آل عمران: ١٤).

٣- محبة تقدير وإعجاب: كحب عقبة بن نافع، أو عبد الرحمن الداخل، أو صلاح الدين الأيوبي أو محمد الفاتح لبطولاتهم والفتوحات التي أجراها الله على أيديهم، وحب حاتم الطائي لكرمه، وعنترة لشجاعته، ومنه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} (الحشر:٩).

٤- محبة أنس وألفة ونفع ومصلحة، كحبك لمهنتك، وحبك لمدينة معين كدمشق مثلاً، وحبك لعلم معين كالأدب مثلاً وحبك لمن قدَّمَ إليك يد العون والمساعدة.

ومن هذا القبيل ما يألفه البعض ويستأنس به من الرذائل والآثام كحب الغيبة والنميمة، وحب الفواحش، كما أخبر عنهم ربنا تبارك وتعالى بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (النور:١٩).

وأكثر أنواع المحبة التصاقاً ببحثنا هو النوع الأخير، وهو الحب المبني على المصلحة والمنفعة بين أطراف المهنة كما لا يخفى.

وتبدأ المحبة بالتوادد، وتنتهي بالتراحم والتعاطف كما بينها ﷺ بقوله: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى). فإذا بلغت المحبة هذا المبلغ، بحيث يكون الناس كالجسد الواحد، فإن ذلك غاية المطلوب، وأقصى ما يمكن أن يسعى فيه المرء.

وأقصى ما يمكن لأطراف المهنة أن يسعوا فيه لتتحقق مصالح المهنة وأهدافها.

الأدلة الشرعية في الحث على التحلي بخُلُق المحبة:

يدل لخلق المحبة آيات وأحاديث كثيرة، منها:

١- قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الحشر: ٩).

فقد امتدح الله الأنصار لاتصافهم بخلق المحبة والإيثار، فعلى الرغم من أن الله قدم ذكر المهاجرين على ذكرهم، وأعطى المهاجرين من الفضل والشرف أكثر مما أعطاهم، فإنهم لم يتأثروا بذلك، ولم تتمكن دوافع الغيرة والأنانية والحسد من التأثير في نفوسهم الطيبة الطاهرة، فأثبت الله لهم هذه الصفة الخلقية الراقية.

٢- وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} (النحل: ١٢٨) فالآية تثني على المحسنين، والإحسان من خلق المحبة المهنية.

٣- عن أنس بن مالكٍ، قالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطُفُ لِحْيَتُهُ مَاءً مِنْ وَضُوئِهِ مُعَلِّقٌ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّبَعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي فَقَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَحِلَّ يَمِينِي فَعَلْتَ، فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ لَيْلَةً أَوْ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ بِشَيْءٍ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا انْقَلَبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهَ، وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ فَيُسْبِغَ الْوُضُوءَ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: غَيْرَ أَنِّي لَا أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ كِدْتُ أَحْتَقِرُ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللهِ، إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ وَالِدِي غَضَبٌ وَلَا هِجْرَةٌ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي ثَلَاثِ مَجَالِسَ: (يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فَطَلَعْتَ أَنْتَ تِلْكَ الثَّلَاثَ مَرَّاتٍ، فَأَرَدْتُ آوِي إِلَيْكَ فَأَنْظُرُ عَمَلَكَ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَبِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي غِلًّا لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا أَحْسِدُهُ عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ).

وجه الدلالة في الحديث أن هذا الرجل لم يبلغ ما بلغه من ثناء وشهادة رسول الله ﷺ في حقه بكثرة عبادة، وإنما بسلامة صدره من الغش والحسد تجاه المسلمين، وهذا هو المقصود بخُلُق المحبة.

كيفية تحقق خُلُق المحبة المهنية:

يتحقق خلق المحبة المهنية بتوافر أمور، منها:

١- تقديم مصلحة المهنة على مصالحه الشخصية، وتسخير معظم جهده وفكره في سبيل تطوير مهنته، وجعلها أنفع وأكمل وأنجح. وبذلك يثبت إخلاصه لها، وصدقه معها، وهو سبيله إلى إتقانها.

فالمدرس الذي يحب مهنته هو الذي يجعل مهنة التدريس شغله الشاغل، ويسعى دائماً لتطويرها، مسخراً وقته وجهده وعلمه وعلاقاته بالآخرين لتطويرها والتقدم بها. ويقال مثل ذلك في الطبيب والمهندس والمحاسب والمحامي والقاضي.

٢- الانتصار للمهنة بالدفاع عنها وعن العاملين فيها، وهذه نتيجة طبيعية لما تقدم، بمعنى أنه إذا أحب مهنته، وأخلص لها، أدى ذلك بداهة إلى دفاعه عنها، وغيرته عليها، وعلى العاملين فيها، ورأى فيها نفسه، وسمعته، ومستقبله.

وهذه المحبة ستدفعه إلى الوقوف في وجه كل من يشوه سمعتها، أو يسيء إليها، وإنْ كان من العاملين فيها، لأنه يرى في ذلك حمايتها والانتصار لها، وذلك بالمفهوم الذي نبه إليه الرسول ﷺ حين قال: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا). فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: (تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ).

فأنا عندما آخذ على يد ولدي أو صديقي فأمنعه من الظلم، أكون قد نصرته، لأني أنقذته من غضب الله، وصنت سمعته وسمعتي بين الناس، وسعيت في إرساء مبادئ العدالة التي بها قامت السماوات والأرض، وكذلك الانتصار للمهنة بالأخذ على يد المسيء إليها حفاظاً على سمعتها، وسمعته وسمعة العاملين بها، وسعياً لتحقيق نجاح المهنة في بلوغ أهدافها على أكمل وجه.

٣- من وسائل تحقيق المحبة بين الناس عامة، وبين أفراد المهنة على وجه الخصوص، إفشاء السلام، وذلك لكثرة ما يكون بينهم من الالتقاء والمواجهة، فتكون الحاجة إليه أشد. فالسلام اسم من أسماء الله تعالى، وإلقاؤه على الآخر يعني تطمينه بأنه لن يجد الأذى أو ما يخيفه من جهتك، فهو في أمان منك، وبذلك تفتح طريقك إلى قلبه، فتتولد المحبة بينكما، وتمتد جسور التواصل، وفي الحث على ذلك يقول الرسول ﷺ : (لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ).

٤- طلاقة الوجه والتبسم في وجوه الآخرين، وإلا فما قيمة سلام بوجه عبوس؟ إن السلام الذي يجلب المحبة، ويفتح طريقه إلى القلوب، هو الذي يصاحبه البشاشة وطلاقة الوجه، لأنها الدليل الأقوى والأفصح لما يُكِنُّه القلب، ومن ثَمَّ جاء الشرع بالحثِ عليه فقال ﷺ: (تبسمك في وجه أخيك صدقة). وقال أيضاً: (كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِنَ المَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ).

٥- الاعتناء بالنظافة الشخصية والزِّي المناسب للمهنة والرائحة الطيبة؛ لأن الذوق السليم يألف هذه الأشياء، وينفر مما يضادها، وديننا الحنيف دين الألفة والمودة والذوق الرفيع، ومراعاة المشاعر، ولذلك حثَّ المسلم على الاغتسال لكل تجمع مثل صلاة الجمعة، وصلاة العيد، وللإحرام بالحج والعمرة، وأمرنا بأن نكون كالشامة بين الناس، وما الوضوء للصلوات والاغتسال إلا أدلة عملية على مدى حب الدين للنظافة. وفي هذا السياق جاءت الآية القرآنية: {يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ}(الأعراف:٣١)، وقال ﷺ لأصحابه: (إنكم قادِمُونَ على إخوانِكم، فأصْلِحُوا رِحَالكُم، وأصْلِحُوا لباسَكُم، حتى تكونوا كأنكم شامةٌ في الناسِ، فإن الله لا يُحب الفُحْشَ ولا التفَحُّشَ).

٦- إكرام ذوي الهيئات والمكانة والجاه، وإنزالهم المنزلة التي تليق بهم، والتجاوز عن عثراتهم، فليس كل الناس سواءٌ، إذ في الناس من تردعه الإشارة، وفيهم من لا يردعه إلا العقوبة القاسية، وبين المرتبتين مراتب كثيرة، كلٌ بحسب تربيته وأخلاقه، ومنزلته العلمية والاجتماعية، وقد راعى ديننا الحنيف ذلك في الناس فلم يجعلهم سواء في ارتكابهم للمحذورات الشرعية، وجعل الخطأ على نوعين: خطأ يستوجب إقامة عقوبةٍ مقدرةٍ شرعاً ويسمى الحدود، وهذه لا مراعاة فيها، وتقام على الجميع أياً كانت صفته أو مركزه في المجتمع لخطورتها. وخطأ لم يقدر له عقوبة محددةً، وإنما فيه التعزير؛ لأنه ليس بخطورة سابقه. وهذا الأخير هو الذي يراعى فيه أصحاب المكانة والوجاهة؛ لأن الغرض منه التأديب والردع لئلا يقع فيه ثانية. وأصحاب الهيئات يكفيهم التنبيه والإشارة ليرتدعوا، بخلاف من لا تردعه إلا العقوبة، وقد قال ﷺ: (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود).

٧- إشعار العاملين بأنهم محل ثقة وتقدير واحترام المسؤولين، والسعي فيما يريحهم في مواصلاتهم وإجازاتهم وأماكن عملهم، وقد أوصى النبي ﷺ بالعبيد خيراً فقال: (إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُم). فإذا كان هذا مع عبده، فكيف يجب أن يكون مع حرٍ مثله، بل زميله في المهنة!.

٨- إيثار زملائه والمستفيدين من الخدمة على نفسه، وتأخير حظوظه عنهم، وهذ مرتبةٌ ساميةٌ لا يطيقها إلا ذووا النفوس الراقية، وهي فوق الإحسان في سُلَّم القيم الأخلاقية، وسبب رئيس للفوز بمحبة الله ومحبة العباد، وقد أثنى الله على الصحابة الأنصار لتحققهم بهذا الخلق العظيم، فقال تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} {الحشر:٩}. والخصاصة شدة الجوع، أي أنهم كانوا يؤثرون ويقدمون غيرهم على أنفسهم فيما يملكونه من زادٍ، مع شدة حاجتهم إليه، وليس يدفعهم إلى ذلك إلا الطمع فيما عند الله.

ولا يخفى مدى أهمية هذه الأمور في تحصيل وتحقيق المحبة المهنية.

صور وتطبيقات لخُلُق المحبة:

ذكر العلماء صوراً وتطبيقات وأحكام فقهية من شأنها أن تؤسس للمحبة المهنية، نشير إلى بعض منها:

١- استئذان المرؤوس من الرئيس:

الاستئذان من الرئيس مطلوب، ومن آداب اللياقة، ويحقق وينمي المحبة بين الرئيس ومرؤوسيه، كما أن عدمَ الاستئذان من الرئيس وتجاهلَه يَنِم عن كِبر، ويتسبب في تنافر وتباغض بين القلوب، ومن ثَمَّ وجدنا القرآن الكريم يحث على هذا الخلق الرفيع في أكثر من موضع، من ذلك قوله تعالى في المطالبة بالاستئذان بصفة عامة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النور:٢٧)، وفي الحث على الاستئذان من الرئيس خاصة يقول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} (النور:٦٢). فدلالة الآية على أدب الاستئذان واضحة جلية، لا تحتاج توضيحاً أكثر.

٢- إفشاء السلام ورده:

عامة الفقهاء على أن إلقاء السلام مندوب إليه شرعاً، لقوله ﷺ في الحديث آنف الذكر: (أَوَلَا أدلُكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم)، وقال بعضهم بوجوبه لقوله ﷺ: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ). قِيلَ: مَا هِيَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: (إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ).

وأما الرد فواجب؛ لعموم قوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} (النساء:٨٦). فقد أمرت الآية بالرد وجوباً.

ولا يخفى أن السلام عموماً من عوامل زرع المحبة بين الناس، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق، ومن ثَمَّ كان مطلوباً شرعاً.

٣- الإحسان إلى الجار:

قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَالجَارِ ذِي القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً} (النساء:٣٦).

وجه الدلالة في الآية أن الله سبحانه أمر المؤمن بالإحسان إلى الجار القريب نسباً، وقيل: الزوجة. كما أمر بالإحسان إلى الجار الجنب، وهو الغريب عن القوم أو القبيلة وقد نزل بينهم، وكذلك أمر بالإحسان إلى الصاحب بالجنب، وهو رفيق السفر أو الضيف، يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "جملة حق الجار أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه. في وضع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طرقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاماً، ويغض بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه، هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين". قال ﷺ: (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ)، وقال: (وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ) قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ).

فإذا كانت كل هذه الحقوق مقررة في الشرع للجار، فإن زميل المهنة لا ينبغي أن يقل عنه؛ لأنه أيضاً جار، وهو جار العمل، يتكرر لقاؤهم يومياً، وتكثر مخالطتهم لبعضهم، فينبغي أن يعامل بنفس القدر من الاحترام والإحسان والرفق .

اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(١) : تقديم مصلحة المهنة على مصالحه الشخصية، وتسخير جهده لتطوير مهنته يندرج في خلق:

أ- الاستقامة المهنية . ب- الطهارة المهنية .

ج- الأمانة المهنية . د- المحبة المهنية .

(٢) : الاستئذان من الرئيس مطلوب، ومن آداب اللياقة، ويحقق وينمي :

أ- الاستقامة المهنية . ب- الطهارة المهنية .

ج- الأمانة المهنية . د- المحبة المهنية .

المحاضرة الرابعة عشرة : نماذج من أخلاق وآداب المهنة

عناية علمائنا بأخلاق وآداب المهنة قديماً

اعتنى علماؤنا منذ القديم ببيان الأخلاق والآداب التي تخص المهن المختلفة، وصنفوا فيها مصنفات كثيرة، نشير إلى بعضها فيما يأتي:

كتاب آداب الملوك، لعلي بن رزين الكاتب (عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري- الثاني عشر للميلاد). تحقيق جليل العطية، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١م. وقد ألفه للملك العادل، ملك موصل (تملكها عام ٥٨٩ هـ). جاء في مقدمته ما نصّه: قد عَمِلَ الحكماءُ والعلماءُ بالسياسات من العرب والعجم والهند في آداب الملوك كتباً، أطالوا فيها الكلام، وسطّروا فيها الأساطير ..." وتضمن الكتاب أربعين باباً تحتوي على نصائح واقعية، ووصايا عملية، موجهة إلى الملك وأولاده، كحسن التدبير، والشجاعة، والعلم، والعدل، و حسن التصرف في الأموال.

كتاب الإشارة الى أدب الوزارة، للوزير لسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) تحقيق محمد كمال شبانة. نشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م. وقد تكلم فيه عن وظائف الوزير، والآداب التي تلزمه. وكان يستهل كل فقراته بعبارة : "أيها

الوزير الصالح" ومما ورد فيه: "وكان الوزير فيهم يُشترط فيه: أن يكون قديم النِّعمة، بعيد الهمة، مكين الرأفة والرَّحمة، كريم العيب، نقي الجيب، مسدّد السهم، ثاقب الفهم ... موفور الأمانة، أصيل الدّيانة، قاهراً للهوى، مستشعراً للتقوى، مشمراً عن الساعد الأقوى، جليل القدر، رحيب الصَّدر، مشهور العِفَّة، معتدل الكفة ... مؤثراً للصدق، صادعاً بالحقِّ، حافِظًا للأسرار، مؤثراً للأبرار، مبايناً بطبعه لخلق الأشرار". ولا يخفى سمو هذه الصفات.

كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة، لأبي بكر محمد بن الحسن القيرواني (ت ٤٨٩هـ). تحقيق الدكتور رضوان السيد. وقد كُتب بأسلوبٍ سلسٍ، وبنفسٍ تربوي تهذيبي، وامتلأ بالحِكم والنصائح والآداب المرتبطة بالملوك والأمراء، وقد رتبه على ثلاثين باباً بعدد أيام الشهر، وقال: "إذا تفطن الفطن منها كل يوم باباً لم يأت عليه الشهر إلا وقد حفظ صدراً كبيراً من الحكمة، وتعلم أصلاً من السياسة. ومما تضمنته فصوله: "الحضّ على القراءة والتَّعلُّم، وآداب النَّظر والتَّفهُّم، والاستشَارة وصِفة المُستشار، ورياضة النَّفس قبل الحاجة، والكلام والصَّمت، والحلم والصّبر، وترك الحلم إذا أدَّى إلى الفَساد، والغضب والرِّضا، والتَّجبر والخضوع، والكتمان والإذاعة، والحرب والمُسالمة، والحيلة والمَكر الخديعة".

كتاب أدب الطبيب، للطبيب إسحاق بن علي الرهاوي (ت ٣١٩). وقد طبع بتحقيق مريزن سعيد عسيري عام ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م من قبل مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. ويتناول الكتاب أخلاقيات مهنة الطب، وما ينبغي أن يتأدب به الطبيب، سواء في سماته الأخلاقية، أو في سلوكه المهني، ومدى التزامه بشرف مهنته، ومدى الشفافية والمصداقية في امتحان الأطباء الجدد حتى يمكن الفصل بين الأطباء الحقيقيين والجهلة المحتالين على حد قوله؛ لأن ثمن الخطأ في هذه المهنة باهظ، وعائد الاحتيال فيها مُهلك. قال: (وقد تكلفت جمع ما قدرت عليه من الآداب التي ينبغي للطبيب أن يؤدب بها نفسه، والأخلاق المحمودة التي ينبغي أن يُقَوِّمَ بها طبعه، وذكرت طرفاً من التدابير التي ينبغي أن يدبر لها جسمه).

كتاب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، للإمام بدر الدين ابن جماعة (ت ٧٣٣ هـ). تحقيق محمد هاشم الندوي، طبعته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند، ثم صورته دار الكتب العلمية ببيروت. جمع فيه مصنفه آداباً كثيرة تخص طلب العلم يتحلى بها الشيخ والطالب، وقد وضع فيه أبواباً عدة في فضل العلم

وشرف أهله، وأدب العالم، ومراعاة الطالب، وأدب المتعلم مع نفسه وشيخه ورفقته، ومصاحبة الكتب وما يتعلق بها من الأدب، وآداب سكنى المدارس للشيخ والطالب مع تفصيل كبير في ذلك.

كتاب أدب القضاء، لابن أبي الدم (ت ٦٤٢هـ). تحقيق د. محمد الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٨٢م. وهو كتاب يجمع بين الأدب والفقه، حيث يبحث في الآداب والصفات التي ينبغي أن يتحلى بها القاضي، وكذلك يبحث في أحكام القضاء وفقهه، والشهادة والشهود وكيفية أداء الشهادة، وصور المحاضر والسجلات ، وغير ذلك من أحكام القضاء وآدابه.

كتاب في آداب الحسبة، لأبي عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي. الناشر: دار الفكر الحديث، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م. قال المصنف في مقدمته" تَحَصَّلَ في فهمي، وتقرر في الحقيقة علمي، من أخبار مفسدي الباعة والصناع بالأسواق وغشهم في الكيل والميزان وبخسهم واستعمالهم الخدع للناس في معاملتهم، والتلبيس عليهم في مداخلتهم وملابستهم، وإحراز الحسبة وتقلد النظر في أمورهم من لا يُحسن لذلك تناولاً، ولا يعرف من الحلال والحرام مفصلاً ومجملاً، ما لم يسعني معه إلا التنبيه على مكرهم، والقول بالمعروف في ذكرهم ...".

وثمة مؤلفات أخرى لا تقل أهمية مما ذكرنا، منها:

كتاب التاج في أخلاق الملوك، لأبي عثمان عمرو بن بحر الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ). تحقيق: أحمد زكي باشا، القاهرة، المطبعة الأميرية ١٣٣٢هـ ١٩١٤م.

الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، للإمام النووي. تحقيق: بسام الجابي، طبعة: دار الفكر دمشق ١٤٠٨ه.

أدب القاضي، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت: ٤٥٠هـ). تحقيق محيي هلال السرحان، بغداد، رئاسة ديوان الأوقاف، مطبعة الإرشاد، ١٣٩١هـ - ١٩٧١.

أخلاق وآداب المهنة في العصر الحديث

درج العاملون في كثير من المهن في عالم اليوم على وضع مواثيق لمهنتهم، أسموها ميثاق الشرف، وهذه المواثيق في معظم بنودها محل اتفاق بين العقلاء، وقد تختلف في بعض الجزئيات من بلد إلى بلد حسب القيم التي يتبناها أهل كل بلد، كما أنها تختلف في بعض بنودها من مهنة إلى أخرى مراعاة لطبيعة المهنة وما يناسبها. وفيما يلي نموذجان لتلك المواثيق:

أخلاقيات المهنة في نظام الخدمة المدنية:

تحدَّث نظام الخدمة المدنية عن بعض الجوانب في أخلاقيات المهنة ، وهو ما يتعلق بشروط التعيين ، ومؤهلات الموظف ، والحفاظ على الأسرار ، والالتزام بوقت الدوام ، وعالج بعض الأخلاقيات السلبية كالرشوة ، واستغلال المنصب ، وبيّن حقوق الموظف ، وواجباته ، والجزاءات العقابية في حال المخالفة المتعمدة.

ويلاحظ أن هذه الجوانب النظامية تتفق مع أحكام الشريعة، لذا فإن الالتزام بها يُعدّ التزاماً بالشرع إضافة إلى أنه التزام وظيفيّ ، وهذا يعين الموظف على تطبيق الأنظمة حيث يستشعر الأجر من الله تعالى على تنفيذ النظام لأنه طاعةٌ لله تعالى، ولولاة الأمر ، ولأنها تحقق المصلحة العامة.

المبحث الأول: المواد الأخلاقية:

*** الكفاءة: ورد في المادة الأولى من نظام الخدمة المدنية: الجدارة هي الأساس في اختيار الموظفين لشغل الوظيفة العامة، والجدارة تمثل مجموع عناصر وصفات ذاتية في الشخص تتصل بالكفاءة الفنية والكفاءات الإدارية والمواظبة، وحسن السلوك، وغير ذلك من الملاءمات المتروكة لتقدير الإدارة.**

و ورد أيضاً في المادة الرابعة في شروط التعيين: أن يكون الموظف:

١- حسن السيرة والسلوك .

٢- غير محكوم عليه بحدٍ شرعيّ أو بحبسه في جريمة مخلة بالشرف أو الأمانة حتى يمضي على انتهاء تنفيذ الحد أو السجن ثلاث سنوات على الأقل .

٣- غير مفصول من خدمة الدولة لأسباب تأديبية ما لم يكن قد مضى على صدور قرار الفصل ثلاث سنوات على الأقل .

وهذه الكفاءة مستقاة من قوله تعالى: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} (القصص: ٢٦) وهذه الآية هي شعار وزارة الخدمة المدنية؛ لأنها تتضمن أهم صفتين في كفاءة الموظف.

*** الالتزام بوقت الدوام: في نظام الخدمة المدنية / المادة ١١ : يجب على الموظف أن يخصص وقت العمل لأداء واجبات وظيفته.**

وهذا الالتزام جزء من الأمانة في الوقت؛ لأن الموظف مؤتمن على وقت عمله، والأجرة التي يحصل عليها هي مقابل قضاء الوقت في العمل، لذا يلزم الموظف أن لا يستغل وقت الدوام لقضاء المصالح الشخصية، أو الخروج في وقت العمل دون إذن؛ لأنه خلاف الأمانة، والاستثناءات لها أحكامها.

*** المحافظة على الأسرار: في نظام الخدمة المدنية: المادة ١٢ / هـ يحظر على الموظف خاصة إفشاء الأسرار التي يطلع عليها بحكم وظيفته ولو بعد تركه الخدمة.**

ويقصد بالأسرار الوظيفية تلك المعلومات أو البيانات التي يطلع عليها بحكم شغله للوظيفة، والتي قد تبقى خافيةً عن البعيدين.

*** المعاملة الحسنة مع المراجعين: في نظام الخدمة المدنية: المادة ١٢/ ١: على الموظف استعمال الرفق مع أصحاب المصالح المتصلة بعمله، وإجراء التسهيلات والمعاملات المطلوبة لهم في دائرة اختصاصه وفي حدود النظام.**

*** عدم استغلال المنصب: في نظام الخدمة المدنية: المادة ١٢ /ب : يحظر على الموظف خاصة إساءة استعمال السلطة الوظيفية، واستغلال النفوذ.**

وفي المادة ١٢/ أ: يحظر على الموظف استعمال سلطة وظيفته ونفوذها لمصالحه الخاصة.

المبحث الثاني: الواجبات :

*** المحافظة على الآداب: في المادة ١١/ أ من نظام الخدمة المدنية : يجب على الموظف خاصة أن يترفع عن كل ما يخل بشرف الوظيفة والكرامة، سواء كان ذلك في محل العمل أو خارجه.**

*** الالتزام بأداء العمل : في المادة ١١ من نظام الخدمة المدنية : يجب على الموظف خاصة أن يخصص وقت العمل لأداء واجبات وظيفته .**

*** حسن التعامل: في المادة ١١ من نظام الخدمة المدنية: يجب على الموظف أن يراعي آداب اللباقة في تصرفاته مع الجمهور، ورؤسائه، وزملائه، ومرؤوسيه.**

*** طاعة المسؤولين: في المادة ١١/ ج من نظام الخدمة المدنية: يجب على الموظف أن ينفذ الأوامر الصادرة إليه بدقة وأمانة في حدود النظم والتعليمات.**

- **ومن واجبات جهة العمل تجاه الموظف: في المادة ٣٦ : تعدّ تقارير دورية عن كل موظف وفق لائحة يصدرها رئيس مجلس الخدمة المدنية. واللائحة هي " لائحة تقويم الأداء الوظيفي " الصادرة في عام ١٤٠٤ هـ .**

المبحث الثالث : الحقوق:

كما أن على الموظف واجباتٍ فإن له حقوقًا، وقد كفل نظام الخدمة المدنية ولوائحه التنفيذية للموظف حقوقاً مالية مقابل أداء واجبات ومسئوليات الوظيفة، منها ما هو دائم ومستمر طوال الخدمة، ومنها ما يصرف لمرة واحدة أو بصفة مقطوعة أو معلق بسبب معين ومن أهم هذه الحقوق ما يلي:

أ) الحقوق والمزايا المالية:

١- الراتب: هو المقابل المادي الذي يتقاضاه الموظف في نهاية كل شهر هجري نظير ما يؤديه من عمل في أثناء خدمته حيث نصت المادة (١٦) من نظام الخدمة المدنية على: (يستحق الموظف راتبه اعتباراً من تاريخ مباشرته العمل) ويتحدد الراتب حسب السلم الخاص بالرواتب والمرتبة التي يشغلها الموظف.

٢- العلاوة: هي المبلغ المالي الذي يضاف إلى راتب الموظف حسب مرتبته بصفة دورية وتُحْتَسب جزءاً من الراتب الأساسي حيث نصت المادة (١٧) من نظام الخدمة المدنية على: (يمنح الموظف العلاوة وفق سلم الرواتب الملحق بهذا النظام وذلك بنقله من الدرجة التي يشغلها إلى الدرجة التالية لها مباشرة في المرتبة نفسها ويتم هذا النقل من أول شهر محرم من كل سنة).

ب) الإجازات:

يتمتع الموظف في أثناء خدمته بعدد من الإجازات إذا توافرت شروط منحها ومن هذه الإجازات العادية (يستحق الموظف إجازة عادية قدرها ستة وثلاثون يوماً كل سنة من سنوات الخدمة براتب كامل يصرف مقدماً حسب آخر راتب يتقاضاه الموظف) وفقاً للمادة (٢٨ /١) من اللوائح التنفيذية لنظام الخدمة المدنية. وإذا انتهت خدمة الموظف دون أن يتمتع بإجازاته يتم تعويضه عما هو مستحق له من الإجازات في حدود ستة أشهر.

المبحث الرابع: العقوبات :

" هناك عقوبات تأديبية تطبق على الموظف في أثناء حياته الوظيفية وهناك عقوبات تأديبية تطبق على الموظف بعد انتهاء خدمته ...

وتتولى هيئة الرقابة والتحقيق مساءلة الموظفين المخالفين لأنظمة الوظيفة فيما يتعلق بقضايا الشرف، وإساءة استعمال السلطة ، والحدود الشرعية ، ويتولى ديوان المظالم القضاء فيها.

ميثاق أخلاقيات مهنة التعليم:

مفهوم أخلاق مهنة التعليم:

هي مجموعة من معايير السلوك الرسمية وغير الرسمية التي يستخدمها المعلمون كمرجع يرشد سلوكهم أثناء أدائهم لوظائفهم، وتستخدمها الإدارة والمجتمع للحكم على التزام المعلمين.

ويمكن القول أن أخلاقيات مهنة التعليم بشكل عام (كمبادئ وقواعد) يمكن أن تنطبق على جميع المعلمين في العالم إلا أن جوهر هذه الأخلاقيات ومضامينها تحكمها فلسفة المجتمع وارثه الحضاري وظروفه.

المقدمة : تعد مهنة التعليم رسالة رفيعة الشأن، عالية المنزلة، تحظى باهتمام الجميع؛ لما لها من تأثير عظيم في حاضر الأمة ومستقبلها.

ويتجلى سمو هذه المهنة ورفعتها في مضمونها الأخلاقي الذي يحدد مسارها المسلكي، ونتائجها التربوية والتعليمية، وعائدها على الفرد والمجتمع والإنسانية جمعاء.

وبديهي أن تستمد الأمم والمجتمعات أخلاقيات المهنة من قيمها ومقوماتها، ونحن بفضل الله نستمد أخلاقيات هذه المهنة من عقيدتنا الإسلامية المقررة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قدوتنا ومعلمنا في هذا الشأن. قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآَخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا}. فهو خير قدوة يقتدي بها الأفراد، وخصوصًا الطامحون لبلوغ الكمال الإنساني في السلوك.

إن هذا الميثاق يتضمن ما يشعر به كل معلم أنه يتعين عليه مراعاته في أدائه لرسالته، وقيامه بعمله قِبَلَ أبنائه الطلاب وزملائه العاملين في الميدان التربوي، وقِبَلَ الوطن بوجه عام، والأمة التي ينتمي إليها بوجه أعم والإنسانية جمعاء.

فالمعلم الناجح هو الذي يأسر قلوب طلابه بلطفه، وحسن خلقه، وحبه لهم، وحنوه عليهم، وينال إعجابهم واحترامهم بتمكنه من مادته التي يعلمها، وببراعة إيصالها إليهم.

والمعلم المحب لعمله يخلص له، ويجد المتعة فيه، وتهون عليه الصعاب والطالب يحب معلمه ويحترمه لما يجد فيه من قدوة حسنة، وعلم راسخ وحكمة ورفق.

وبحب الطالب للمعلم، يحب المادة، ويستسهل صعبها، ويتألق فيها؛ فينظر المعلم كيف يدخل إلى قلوب أبنائه ليؤدي المسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقه.

وسنقتصر فيما يأتي على المواد ذات العلاقة المباشرة بأخلاق المهنة:

المادة الرابعة: المعلم وأداؤه المهني:

المعلم مثال للمسلم المعتز بدينه المتأسي برسول الله ﷺ .

المعلم يدرك أن النمو المهني واجب أساس، والثقافة الذاتية المستمرة منهج في حياته، يطور نفسه وينمي معارفه منتفعاً بكل جديد في مجال تخصصه.

يدرك المعلم أن الاستقامة والصدق، والأمانة، والحلم، والحزم، والانضباط، والتسامح، وحسن المظهر، وبشاشة الوجه، سمات رئيسة في تكوين شخصيته.

المعلم يدرك أن الرقيب الحقيقي على سلوكه، بعد الله سبحانه وتعالى، هو ضمير يقظ وحسّ ناقد، وأن الرقابة الخارجية مهما تنوعت أساليبها لا ترقى إلى الرقابة الذاتية.

يسهم المعلم في ترسيخ مفهوم المواطنة لدى الطلاب، وغرس أهمية مبدأ الاعتدال والتسامح والتعايش بعيداً عن الغلو والتطرف.

المادة الخامسة: المعلم وطلابه:

العلاقة بين المعلم وطلابه، والمعلمة وطالباتها، لُحْمتها الرغبة في نفعهم، وسَداها الشفقة عليهم والبر بهم، وأساسها المودة الحانية، وحارسها الحزم الضروري، وهدفها تحقيق خيريّ الدنيا والآخرة للجيل المأمول للنهضة والتقدم.

المعلم قدوة لطلابه خاصة، وللمجتمع عامة، وهو حريص على أن يكون أثره في الناس حميداً باقياً، لذلك فهو يستمسك بالقيم الأخلاقية، والمثل العليا.

يحسن المعلم الظن بطلابه ويعلمهم أن يكونوا كذلك في حياتهم العامة والخاصة.

المعلم أحرص الناس على نفع طلابه، يبذل جهده كله في تعليمهم، وتربيتهم، وتوجيههم.

المعلم يعدل بين طلابه في عطائه وتعامله ورقابته وتقويمه لأدائهم، ويصون كرامتهم ويعي حقوقهم، ويستثمر أوقاتهم بكل مفيد.

المعلم أنموذج للحكمة والرفق، يمارسهما ويأمر بهما، ويتجنب العنف وينهي عنه ويعوّد طلابه على التفكير السليم والحوار البناء، وحسن الاستماع إلى آراء الآخرين والتسامح مع الناس والتخلق بخلق الإسلام في الحوار، ونشر مبدأ الشورى.

يعي المعلم أن الطالب ينفر من المدرسة التي تستخدم العقاب البدني والنفسي.

يسعى المعلم لإكساب الطالب المهارات العقلية والعلمية، التي تنمي لديه التفكير العلمي الناقد، وحب التعلم الذاتي المستمر وممارسته.

المادة السادسة: المعلم والمجتمع:

يعزز المعلم لدى الطلاب الإحساس بالانتماء لدينه ووطنه، كما ينمي لديهم أهمية التفاعل الإيجابي مع الثقافات الأخرى.

المعلم أمين على كيان الوطن ووحدته وتعاون أبنائه.

المعلم موضع تقدير المجتمع، واحترامه، وثقته، وهو لذلك حريص على أن يكون في مستوى هذه الثقة، وذلك التقدير والاحترام.

المعلم عضو مؤثر في مجتمعه، تعلق عليه الآمال في التقدم المعرفي والارتقاء العلمي والإبداع الفكري والإسهام الحضاري.

المعلم صورة صادقة للمثقف المنتمي إلى دينه ووطنه، الأمر الذي يلزمه توسيع نطاق ثقافته، وتنويع مصادرها، ليكون قادراً على تكوين رأي ناضج مبني على العلم والمعرفة والخبرة الواسعة.

المادة السابعة: المعلم والمجتمع المدرسي:

الثقة المتبادلة والعمل بروح الفريق هو أساس العلاقة بين المعلم وزملائه، وبين المعلمين والإدارة التربوية.

يدرك المعلم أن احترام قواعد السلوك الوظيفي والالتزام بالأنظمة والتعليمات وتنفيذها والمشاركة الإيجابية في نشاطات المدرسة وفعالياتها المختلفة، أركان أساسية في تحقيق أهداف المؤسسة التعليمية.

المادة الثامنة: المعلم والأسرة:

المعلم شريك الوالدين في التربية والتنشئة.

المعلم يعي أن التشاور مع الأسرة بشأن كل أمر يهم مستقبل الطلاب أو يؤثر في مسيرتهم العلمية، أمر بالغ النفع والأهمية.

يؤدي العاملون في مهنة التعليم واجباتهم كافة ويصبغون سلوكهم كله بروح المبادئ التي تضمنتها هذه الأخلاقيات ويعملون على نشرها وترسيخها.